محاضرات عن الشيخ عبد القادر المغربي

محمد أسعد طلس



محاضرات عن الشيخ عبد القادر المغربي

محاضرات عن الشيخ عبد القادر المغربي

تأليف
محمد أسعد طلس



محاضرات عن الشيخ عبد القادر المغربي

محمد أسعد طلس

رقم إيداع ١٦٩٧١ / ٢٠١٣
تدمك: ٤ ٤١٧ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سحر عبد الوهاب.

المحتويات

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وجنده.

أما بعد؛ فهذه محاضرات ألقيتها على طلابي في معهد الدراسات العالية بالقاهرة للتعريف بالشيخ الإمام عبد القادر المغربي، أحد قادة الإصلاح، وزعماء الحركة الفكرية والأدبية، في نهضة أمتنا العربية، الذي توفاه الله في العام الماضي، واحتفل العالم العربي والإسلامي بتكريمه احتفالًا كبيرًا، اشتركت فيه الحكومات العربية، والإسلامية، والمحافل الأدبية والاجتماعية، اشتراكًا دلَّ على مكانة الفقيد وتقديرهم إيَّاه، بما بذل في خدمة أمَّته، وعمل على تتميم رسالة شيخه السيد المصلح جمال الدين الأفغاني، وصديقه الإمام الشيخ محمد عبده.

ومن حق أمتنا العربية، في هذه الفترة من تاريخنا الحديث أن تقف وقفة طويلة أمام سِيَر البررة من أبنائها، الذين قضوا في سبيلها ورفعة شأنها في كافة الحقول العامة من سياسة وأدب واجتماع واقتصاد، منذ القرن الماضي في أيامنا هذه، فإنهم البناة الأُول لهذه الحركة التحررية التي نرجو لها أن تتم في دنيا العرب، وعوالم المشرق كله بحول الله وقوته.

إنَّ علي مبارك، ورفاعة الطهطاوي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومصطفى كامل، وعلي يوسف، وجمال الدين القاسمي، وعبد الرحمن الكواكبي، وعبد العزيز جاويش، والأمير شكيب أرسلان، وعبد القادر المغربي، وإخوانًا لهم كثيرين في مضمار الفكر والعلم والإصلاح، لهم دين كثير في أعناق هذه الأمة العربية، فيجب عليها أن توفيهم إيّاه، وذلك بتعريف الأجيال الصاعدة الناشئة اليوم بما فعله أبناء الرعيل الأول بالأمس القريب والبعيد من جهد وكَدٍّ في سبيل النهضة العربية الحاضرة، وإيقاد شعلتها، والدفع بها تسير قدمًا بخطًى صحيحة متزنة، وتنفض عن عيونها وسن العصور الظالمة، وآثار

عهود الاستعمار الظالم البغيض بشتى ألوانه وأشكاله في كافة أقطار القارتين الشقيقتين آسيا وأفريقيا.

وإنَّ الجهود التي يقوم بها بعض الكتاب وقادة الفكر اليوم في مصر وسائر البلاد العربية، والأقطار الشرقية، لتعريف الجيل الصاعد الواعي بأخبار الرعيل الأول من الجنود القدامى في حملة محاربة الاستعمار، والبعث القومي، لهي جهود مشكورة، وطيبة، ومفيدة. وإنَّ الشيخ الإمام «المغربي» رحمه الله هو أحد أولئك الجنود الذين بذلوا حياتهم، منذ نعومة أظفارهم إلى أن قضوا، في سبيل أمتهم، متسهلين كل صعب من سجن ونفي وتعذيب وتشريد في سبيل عقيدتهم الوطنية، وأفكارهم الإصلاحية، والعمل على القضاء على الاستعمار في حقول السياسة والعلم والاقتصاد.

ومما هو جدير بالذكر أنَّ الوعي العام قد تنبه في القارتين الشقيقتين، وأنَّ الناس بصورة عامة أخذوا يتتبعون أخبار الرعيل الأول من المجاهدين القدامى، وينقبون عن آثارهم، ويعملون على التعرف إليهم، والإشادة بمآثرهم، والسير على غرارهم، وتتميم رسالتهم.

ولقد كان للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية وللمعاهد والمؤسسات العلمية المرتبطة بها أو بغيرها من المعاهد العالية الأخرى في مصر وعواصم المشرق أثر بيِّن في هذه الحلبة، وإنَّ جهود هذه المؤسسات في الطلب إلى المؤلفين أن يكتبوا عن ذلك الرعيل، وإلى الحاضرين أن يتحدثوا عنهم، ويسهموا في ذلك، لهي جهود طيبة ومحمودة، ويرجى لها أن تفيد.

وبعد فرحم الله «المغربي» «الأفريقي» الأرومة، «الآسيوي» المنبت الذي قضى في سبيل نهضة الشرق من أدناه إلى أقصاه، وحقق لأممه أن تسير في ركب الحضارة من جديد، عاملة على تدعيم مواكب النور، والحضارة، والحرية، والخير في الأرض.

محمد أسعد طلس

القاهرة ٢٩ / ١٢ / ١٩٥٧

عصره

١٢٨٤–١٣٧٥هـ/١٨٦٧–١٩٥٦م

أطلَّ القرن الثالث عشر للهجرة مع نهاية القرن الثامن عشر للميلاد، وكانت الإمبراطورية العثمانية هي المسيطرة على أكثر أرجاء العالم العربي، وإن كانت هذه السيطرة روحية في بعض أقاليمه كشمالي أفريقيا، ومصر، أما الجزيرة العربية والشام والعراق فكانت تحت النفوذ المطلق للإمبراطورية، كما كانت على حالة عجيبة من التفكك والتفسخ الداخلي والخارجي.

ولما حاول السلطان العثماني سليم الثالث إصلاح الأمور وتنظيم الجيش، والأخذ بطرائق الإصلاح الأوروبية الحديثة بمعونة سفير نابليون الثالث لدى بلاطه الجنرال سباستياني Sébastiani لم يمكِّنه الإنكشاريون المرتزقة من القيام بتلك الحركة الإصلاحية، وأكرهوه على أن يخلع نفسه، وتم لهم ذلك في سنة ١٨٠٧م، وفتكوا بجميع زعماء الإصلاح الذين كانوا يؤازرون ذلك السلطان في حركته الإصلاحية، وأجلسوا على العرش ابن عمه مصطفى الرابع الذي سار معهم كما يريدون، وأرجع الإمبراطورية إلى طرائق الرجعية والفساد، وكذلك فعلوا مع خلفه السلطان محمود الثاني، الذي أراد أن يخطو خطوة نحو الإصلاح، فوقفوا في وجهه فترة إلى أن تغلب عليهم، وأصدر «فرمانًا شاهانيًّا في سنة ١٨٢٦م أوجب به تأليف جيش نظامي حديث في الإمبراطورية، وفتك بعدد كبير من الإنكشارية، وقضى على سلطانهم قضاءً مبيدًا، ولكن الدول الغربية الطامعة في استعمار الإمبراطورية العثمانية لم تترك السلطان المصلح يتم خطواته الجريئة؛ ففي سنة ١٨٢٧م اتفقت الدول الثلاث الكبرى آنئذ (وهي روسيا وإنكلترا

وفرنسا) فيما بينها على تجزئة أوصال الإمبراطورية، وحطَّمت أسطولها في معركة «نافارين» المشهورة، ثم تتابعت المحن على الإمبراطورية المريضة، فلم يتمكن السلطان محمود الثاني من إتمام إصلاحاته، واستمرت الدولة تتخبط في حالة الفوضى والجهل، وكان لانفصال بعض أجزاء الإمبراطورية عنها أثر كبير في إلهاب عواطف الأجزاء الأخرى وإثارة العواطف القومية عند أهلها؛ فقد كان لانفصال اليونان عن جسم الإمبراطورية في سنة ١٨٣٠م بعد حرب فظيعة، ذهب بسببها أكثر قطع الأسطول التركي والأسطول المصري، كما كان لانفصال المقاطعات الرومانية عن الإمبراطورية وإعلانها استقلالها في ذلك الحين أثر بالغ في إضعاف كيان الدولة، وإثارة شعور القوميات غير التركية، وفي طليعتها القومية العربية.

ويظهر أنَّ الدولة العثمانية قد طاش صوابها في ذلك الحين، وأرادت التنفيس عن غمها، الذي ران عليها من جرَّاء تلك الضربات، فسلكت إلى ذلك سبيلًا بشعة مجرمة، وهي الانتقام من النصارى الخاضعين لها وبخاصة نصارى الديار الشامية، وكتبت حكومة الآستانة إلى ولاتها في الشام تطلب إليهم أن ينتقموا ممن تحت أيديهم من النصارى، وجمع والي دمشق التركي أعيان البلاد في سنة ١٨٣١م وتلا عليهم الفرمان الشاهاني القاضي بقتل كبراء النصارى في تلك البلاد لتآمرهم على الدولة وإفسادهم مصالحها، ولكن موقف أعيان المسلمين كان موقفًا مشرفًا إذ قالوا له: ليس بين النصارى المقيمين بيننا مفسدون، وإنما هم أهل ذمة وعهد، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإنَّ الرسول محمد ﷺ أوصى بهم خيرًا، فقال: من آذى ذميًّا كنت خصمه يوم القيامة، ونحن لا نتحمل تبعة ظلمهم والفتك بهم، فأخذ الوالي العثماني خطوطهم على ذلك، وبعث بها إلى الباب العالي في الآستانة.

ولعمري إنه لموقف مشرف، وإنه لدليل على أنَّ الروح القومية السليمة كانت قويمة صحيحة في الأمة العربية منذ آنذاك، على الرغم من محاولة الدولة العثمانية تفكيكها، فأيَّة علاقة بين نصارى اليونان الثائرين على الدولة العثمانية، وبين نصارى العرب العائشين في الشام، المحافظين على حقوق المواطن الصالح! ولكنه منطق الظلم والفوضى، ولا شك في أنَّ هذا العمل كان بذرة من بذور الانبعاث القومي العربي؛ فقد رأى العرب المسلمون في هذه الديار فساد خطة الأتراك وسوء إدارتهم، فتركزت في نفوس الواعين منهم — على الأقل — فكرة التخلص من الظلم التركي، وإنقاذ البلاد العربية الرازحة تحت عبئه من تلك الحالة الشاذة؛ وكانت أولى الانتفاضات ثورة أهالي دمشق على واليهم التركي سليم باشا في سنة ١٢٤٧هـ؛ حين قدم إليهم من الباب العالي وأخذ يعاملهم بقسوة

وعنف، بعد أن قاسى منه أهل حلب قسوة وعنفًا شديدين، وما أن وصل إلى دمشق حتى زاد الضرائب والمكوس، واحتقر الوجوه والأعيان، وضرب العامة فعزموا على الفتك به وبجنده، وتجمهروا متظاهرين عليه، ثم حصروه في قصره وضيقوا عليه فاضطر إلى أن يلجأ إلى القلعة، ثم أمر بإحراق دار الحكومة ليشغل الناس عن محاصرته ويستطيع النجاة بنفسه، فلم يأبهوا للحريق، واضطر إلى أن يقذف عليهم نيران المدافع من القلعة فهلك عدد كبير منهم، ثم لجأ هو إلى بيت القاضي الشرعي، فهاجم الناس البيت واحتلوه وقتلوا الوالي، وألَّفوا من بينهم حكومة محلية تدير شئون البلاد.

هكذا كانت حالة ولاية دمشق، ولم تكن حالة سائر ولايات الشام أو غيره من أجزاء العالم العربي أحسن وضعًا؛ ولذلك تداعى العقلاء وأهل الحكمة والوعي، إلى العمل في كافة الحقوق المؤدية إلى إثارة القومية الصحيحة، والإصلاح العام، والتوجيه المستقيم، لا في السياسة وحسب، بل في التعليم والأدب والاجتماع والإصلاح.

أما التعليم والأدب فقد كان أول المجالات التي ابتدأ فيها الإصلاح؛ ففي القرن السابع عشر نبغ في حلب المطران جرمانوس فرحات (١٦٧٠–١٧٣٢م) العالم المصلح الذي رأى فساد اللغة العربية، فعمل على إصلاحها والتأليف فيها، وعرَّب الإنجيل تعريبًا صحيحًا مسجوعًا، عرَّف الكنيسة فصاحة لغة العرب، ووضع معجمًا صغيرًا سمَّاه «الإعراب عن لسان الأعراب»، وأوجد أول مجمع علمي لغوي في حلب، انتخب له نخبة من علماء حلب الدينيين والمدنيين، الذين انصرفوا إلى الترجمة والنقل، وكانوا يعرضون عليه نتاجهم فينقحه، وأخذ يسعى في جمع المخطوطات العربية، وبذلك غدَت حلب في عهده مركز الإشعاع الفكري في النهضة الحديثة، ومنها انتقل إلى لبنان وسورية، فظهر فيهما نفر من رجال الفكر أمثال: الشيخ أحمد عبد اللطيف البربير (١٧٤٧–١٨١١م)، وبطرس كرامة (١٧٧٤–١٨٥١م)، وأمين الجندي (١٧٥٦–١٨٤٠م)، والشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠–١٨٧١م)، والشيخ يوسف الأسير (١٨١٤–١٨٨٩م)، وأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤–١٨٨٨م)، وبطرس البستاني (١٨١٩–١٨٨٣م)، والشيخ إبراهيم الأحدب (١٨٢٦–١٨٩٠م)، والشيخ حسين الجسر (١٨٤٥–١٩٠٩م)، والشيخ حسين بيهم (١٨٣٣–١٨٨١م)، والشيخ طاهر الجزائري (١٨٥٠–١٩١٩م)، والشيخ عمر الأنسي (١٨٢١–١٨٧٦م) …

وليس ها هنا مجال البحث التفصيلي في التعليم والأدب.

وأما الاجتماع والإصلاح فقد نبغ أوائل القرن التاسع عشر نفر من المصلحين في سورية ولبنان رأوا سوء الحالة الاجتماعية التي كان عليها قومهم، فألَّفوا في الإصلاح آثارًا

كان لها وقعها، وتأثيرها في المجتمع العربي وهم: أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤–١٨٨٨م) في مقالاته العديدة وكتبه الكثيرة، وأجلُّها «الفارياق» و«كشف المخبَّأ» و«كنز الرغائب».

وفرنسيس المرَّاش (١٨٢٦–١٨٧٣م) في كتابيه «مشهد الأحوال» و«غابة الحق».

وسليم بطرس البستاني (١٨٤٨–١٨٨٤م) في رواياته الإصلاحية، سواء التي ترجمها، أو التي ألَّفها، أو في مقالاته التي ملأ بها جداول مجلته «الجنان».

وإبراهيم اليازجي (١٨٤٧–١٩٠٦م) في قصائده التوجيهية، أو في مقالاته القومية التي نشرها في جريدة «النجاح»، أو مجلة «الضياء».

وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩–١٩٠٢م) في مقالاته الإصلاحية التي نشرها في «جريدة الشهباء» وفي كتابيه المشهورين «أم القرى» و«طبائع الاستبداد».

وأديب إسحق (١٨٥٦–١٨٨٥م) في مقالاته التي نشرها في «جريدة التقدم» أو رواياته الاجتماعية التي ألَّفها أو ترجمها أو في كتبه الاجتماعية.

وشبلي الشميِّل (١٨٦٠–١٩١٦م) في مقالاته التوجيهية الجدلية، ومباحثه العلمية، وبخاصة مباحث علم النشوء والارتقاء.

وفرح أنطون (١٨٦١–١٩٢٢م) في رواياته الاجتماعية التي ترجمها أو ألَّفها، وفي مباحثه الفلسفية والاجتماعية التي نشرها.

ونجيب الحداد (١٨٦٧–١٨٩٩م) في رواياته الإصلاحية ومقالاته النقدية.

وعلامتنا وشيخنا دولة الأستاذ فارس الخوري مدَّ الله في عمره (١٨٧٧م) في مقالاته وقصائده الإصلاحية ومباحثه السياسية والقانونية والاجتماعية.

هؤلاء هم أئمة الشاميين المصلحين في القرن التاسع عشر.

أما الناحية السياسية القومية فقد ظهرت في الجزيرة العربية منذ أن قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ١١١٥–١٢٠٦هـ/١٧٠٣–١٧٨٧م بدعوته الدينية الإصلاحية الرامية إلى تطهير الإسلام مما علق به من البدع، وقد اعتنق فكرته الأمراء السعوديون في أوائل القرن التاسع عشر، وكان هذا بدء الانطلاق في القومية العربية الهادفة إلى استقلال الجزيرة العربية، وما حولها من البلاد العربية عن السلطنة العثمانية.

وقد قوَّى السعوديون صلاتهم بالزعماء الدينيين المصلحين في الأقطار الأخرى كالشيخ محمد عبده في مصر والألوسيين في العراق، وازدادت هذه الصلة قوة حين نبغ من تلاميذهم السيد محمد رشيد رضا، والشيخ عبد القادر المغربي — رحمهما الله — والشيخان محمد بهجة الأثري، ومحمد بهجة البيطار — حفظهما الله.

وكان إلى جانب هذه الحركة السياسية التي قامت في قلب الجزيرة العربية، حركة أخرى تمتُّ بصلة قوية إلى الناحية السياسية، وهي حركة الجمعية الخيرية التي قامت في دمشق في أواخر عهد الوالي المصلح مدحت باشا سنة ١٨٧٨م/١٢٩٥هـ برعاية الوالي نفسه، وكان على رأسها العلامة الكبير الشيخ طاهر الجزائري، ومن رجالاتها رفيق بك العظم، وعطا أفندي الكيلاني، والأمير شكيب أرسلان، وسليم أفندي البخاري والشيخ جمال الدين القاسمي، وأسعد بك الدرويش، وسليم بك الجزائري، وشكري بك العسلي، وعبد الوهاب بك الإنكليزي، وأستاذنا فارس بك الخوري، وغيرهم من الشبان العرب المخلصين. وقد امتدت حركتهم من سورية إلى لبنان، فاتصلوا ببعض رجالاته في بيروت كالشيخ أحمد عباس الأزهري، والشيخ عبد القادر المغربي، والشيخ محمد رشيد رضا، والأمير شكيب أرسلان، والسيد عبد الغني العريسي، والسيد محمد المحمصاني، والسيد عمر حمد، وعملوا جميعًا في دمشق وبيروت على إحياء جذوة القومية العربية والوقوف أمام حملة التتريك، التي كانت تسعى إليها الدولة العثمانية، وإن كانوا يختلفون في الطريق المؤدية إلى ذلك، فبعضهم يرى أنَّ الحركة يجب أن تهدف إلى انتزاع حقوق العرب من الأتراك انتزاعًا بالقوة بعيدًا عن الجامعة العثمانية الإسلامية، وهو رأي الشبان، وبعضهم يرى أنَّ الأصلح في نظرهم وفي تلك الظروف أن يكون ذلك ضمن الجامعة العثمانية الإسلامية، وهو رأي الشيوخ، وكان شيخنا المغربي، والشيخ رشيد رضا، والأمير شكيب أرسلان يرون الرأي الثاني كما سنفصله فيما بعد.

أما بعد فهذه لمحة رأينا أن نقدمها بين يدي محاضراتنا؛ لنبيِّن البيئة التي ظهر فيها الشيخ الإمام عبد القادر المغربي، والمحيط الذي نشأ فيه، والحالة الاجتماعية والثقافة التي كانت عليها بلاد الشام في تلك الفترة.

أسرته وسيرته

في السابع والعشرين من شهر شوال سنة ١٣٧٥هـ الموافق ليوم ٧/٦/١٩٥٦م فجعت اللغة العربية والأمة الإسلامية بالشيخ الإمام المصلح اللغوي عبد القادر المغربي بعد جهاد طويل في سبيل خدمتهما، والسعي المتواصل لرفعة شأنهما والذب عن كيانهما، دام ستين سنة على أقل تقدير، فقد ولد رحمه الله في ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م، وحمل القلم مجاهدًا ومصلحًا، وله عشرون سنة، فلم يتركه حتى توفاه الله.

والفقيد من أسرة علمية عريقة في الدين والفضل.

فأبوه هو الشيخ مصطفى بن أحمد بن عبد القادر بن عبد الرحمن المغربي. وعبد الرحمن هذا[1] تولى منصب الإفتاء في اللاذقية وطرابلس والشام مدة ٤٥ سنة، وقد ترجمه المرادي في تاريخه «سلك الدرر»، وقال: إنَّ وفاته كانت سنة ١١٩١هـ، وبيتهم في طرابلس، كما في تونس، بيت علم وقضاء وفُتيا، استمر ذلك فيهم منذ أن هاجر جدهم «الشيخ محمد درغوث طورغود» من تونس إلى طرابلس في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة.

وكان للشيخ أحمد عناية خاصة بتنشئة ولده مصطفى على العلم، فتلقى التجويد على «الشيخ العريف»، وطلب مبادئ العربية على «الشيخ عرابي»، وكان من رفاقه في هذا الطلب مصطفى أفندي كرامة والشيخ إبراهيم الأحدب نزيل بيروت، ثم عكف على تلقي العلوم الدينية من حديث وتفسير وفقه على «الشيخ رشيد الميقاتي»، واشتهر في ذلك العهد «الشيخ يوسف الأسير الصيداوي ثم البيروتي» في فنون العربية وآدابها، فاستدعاه الشيخ أحمد إلى طرابلس للإقامة ضيفًا في داره وتعليم ولده، فلبَّى الطلب، وأخذ يعلمه اللغة والأدب، وقد وجدت في خزانة آل المغربي نسخة مخطوطة من مقامات الحريري في ذيلها إجازة بخط الشيخ يوسف الأسير لتلميذه مصطفى، الذي قرأها عليه قراءة ضبط وتصحيح. ولما بلغ مصطفى نحو العشرين من عمره أحب أبوه إرساله إلى الأزهر

لإكمال التحصيل، فذهب في سنة ١٢٦٨هـ ولم تطل مدة إقامته فيه لرمد شديد أصابه، فكتب إليه والده بالحضور إلى طرابلس بعد أن أجازه شيوخه: الباجوري، والرشيدي، والسقا، والمبلط، والدمنهوري. وفي عودة مصطفى إلى طرابلس مرَّ ببيروت، فأجازه مفتيها «الشيخ محمد الحلواني»، وفي سنة ١٢٧٢هـ تزوج بالسيدة أسماء كريمة «الحاج عثمان علم الدين» من كبار تجار طرابلس، وكانت بين الأسرتين محبة وود قديم، ثم توفي والده، وكان عمره بضعًا وعشرين سنة، فنشط إلى العمل وضاقت عليه طرابلس، فتيمم دمشق التي كانت مركز ولاية سورية. وكانت طرابلس متصرفية ملحقة بها؛ للاجتماع بعلمائها الأعلام والاستزادة من طلب العلوم، وكان أشد اتصاله بالأمير عبد القادر الجزائري الذي كان حديث العهد بالوفود إلى دمشق، ثم ما لبث أن تولى سنة ١٢٨٠هـ القضاء في محكمة الميدان، إحدى محاكم دمشق الأربع يومئذ، ولم يشغله ذلك عن العلم ومثافنة العلماء، وكان كلما وجد فرصة للعمل شغلها بتأليف رسالة في الفنون الشرعية أو غيرها، حتى تجمع لديه عدة رسائل، وطائفة من هذه الرسائل متوجة بإهدائها إلى الأمير عبد القادر رحمه الله، مما يجدر بنا ذكره في هذه المناسبة أنه في سنة ١٣١٠هـ زار عبد القادر المغربي في الآستانة الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، فأراه هذا رسالة مخطوطة وقال له: خط من هذا؟ فقال له عبد القادر: خط والدي، ثم تصفح الرسالة، فإذا هي في إعراب بعض ألغاز الشواهد، فقال الأمير محمد: كان والدي تعجبه مناظرة العلماء في مجلسه، وكان له ابن عمه، وهو الشيخ مصطفى التهامي، فكان يثير خلافًا نحويًّا أو لغويًّا في المجلس حتى يسمع ما يقول العلماء فيه، وكان أشد ما يحتدم النزاع بين المصطفوين المغربيين: المغربي والدك والمغربي ابن عمة أبي الأمير عبد القادر، واختلفا في بيت من أبيات الشواهد النحوية، وبعد أيام وضع والدك رسالة في معنى البيت وإعرابه، وافتتحها بإهدائها للأمير، وهي هذه التي في يدك، وتاريخها ١٢٧٥هـ.

ومن الرسائل التي أَلَّفها مصطفى أبو عبد القادر في تلك الأثناء رسالة «درر التعريف بالحب الشريف» شرح فيها حديث «إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل: إنَّ الله يحب فلانًا ... إلى آخر الحديث»، وقد قرظها كل من الشيخ علاء الدين بن عابدين علامة الشام الأشهر، وعلامة آخر اسمه «محمود»، وأغلب الظن أنه «محمود أفندي حمزة» مفتي الشام المشهور. وله رسالة أخرى ضمنها محاورة خيالية، وقعت بين مدن الشام تتسابق إلى الحظوة بولاية «أسعد مخلص باشا»، ومن مصنفاته «منظومة» من بحر الرجز ضمنها قواعد المعاملات الفقهية وحدودها وأركانها وشرائطها، وابتدأها بمسائل البيع فالإجارة

فالكفالة فالحوالة فالقضاء، وختمها بمسائل الفرائض. وله رسالة شرح فيها منظومة محمد بن سيفا في العلاقات البلاغية، ورسالة «الدر المنضد في شرح قل هو الله أحد» وقد ألَّفها لما نزل دمشق، واتصل بأفاضلها وعلمائها، ولا سيما الأمير عبد القادر الذي كان ينتاب مجلسه على الدوام كما أسلفنا، وكان مجلس الأمير لذاك العهد مثابة للفضلاء وكبار العلماء، فكان يحصيهم في نفسه عددًا، ويتمنى لو يجمع شتاتهم بعد أن كانوا بددًا، فاتفق في بعض المجالس أن جرى بينه وبين سميه الشيخ مصطفى المغربي التهامي ذكر معنى «الصمد» الوارد في سورة الإخلاص، وكان مجلس الأمير غاصًّا بطائفة من علماء دمشق، فاحتدم الجدال بين المغربيين، وكان الأمير يعجبه هذا النقاش في العلم بينهما إلى آخر ما تقدم ذكره في حديث الأمير محمد في الآستانة، وقال مصطفى أبو عبد القادر في ذلك في مقدمة الرسالة: فاغتنمت ما حل بيني وبين زميلي، وأضمرت في نفسي وضع تفسير على سورة الإخلاص في رسالة موجزة يقتصر فيها على ما قاله المفسرون في تفسيرها، فألَّفها ثم عرضها على العلماء لأخذ خطوطهم في تقريظها وتوقيعهم عليها، وقد حدثني عبد القادر المغربي أنَّ عدد هؤلاء العلماء كان عشرين عينًا من أكبر أعيان دمشق في ذلك العهد، وفي مقدمتهم شيخ الشام «عبد الله الحلبي»، وعلى ساقتهم قاضيها التركي «مكتوبي زاده محمد أفندي» وتاريخ تقريظه ١٢٨٣هـ، وفي السنين التي بعدها انتقل مصطفى المغربي إلى قضاء اللاذقية وبلاد أخرى في ولاية حلب، فأخذ خطوط بعض علماء تلك البلاد في تقريظ الرسالة، فأصبح عدد التقاريظ ستًّا وعشرين تقريظًا، دل مجموعها ونمط أسلوبها على حالة الثقافة والتفكير في ذلك العهد؛ أي منذ مائة سنة كاملة، وقد طلب إليَّ الفقيد — قبيل وفاته بأيام — أن أهتم بنشرها، ولكن الأجل وافاه قبيل الشروع في ذلك.

ويظهر من تواريخ هذه المؤلفات والرسائل أنَّ والد الشيخ المغربي أقام في دمشق بين سنتي ١٢٧٥ و١٢٨٣هـ؛ أي ثماني سنوات قضى معظمها في نيابة محكمة الميدان الشرعية. وكان يزور طرابلس ويعود إلى دمشق لزيارة أصدقائه فيها، لا سيما الأمير عبد القادر والشيخ علاء الدين بن عابدين الذي كان تولى قضاء طرابلس الشام، فكانت بينهما صداقة صميمة، وقد أديا فريضة الحج معًا، ثم تولى مصطفى المغربي بعد محكمة الميدان بدمشق نيابة القضاء في اللاذقية سلخ شوال سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٧م،[٢] وكان بعد ذلك يؤم الآستانة ساعيًا إلى نيل القضاء في بعض ولايات السلطنة، فتولى بعض النيابات، ثم اقتضته الظروف العائلية أن يرجع إلى طرابلس ويقيم فيها وذلك في سنة ١٢٩٥هـ،

وفي خلال ذلك عُيِّن عضوًا في مجلس إدارة طرابلس، ولم يطب له العمل فيه لكثرة ما كان يعرض عليه من معاملات قانونية لم يكن له بها عهد، ويراها لا تنطبق على أحكام الشريعة، فيأبى الموافقة على قراراتها، وكان متصرف طرابلس يومئذ إبراهيم باشا (الذي عين بعد طرابلس لمتصرفية القدس الممتازة)، وكان يتململ الباشا بمخالفته ففاتح بذلك الشيخ علي رشيد الميقاتي — أوجه مشايخ طرابلس عند الحكام في ذلك العهد — وقال له: قل لمصطفى أفندي المغربي: إنَّ مجلس الإدارة ما هو مدرسة دينية، وإنما هو مجلس تنفذ فيه الأحكام حسب القوانين الوضعية، وعلم بذلك الشيخ مصطفى المغربي، فجعل من يومئذ كلما عرضت معاملة لتوقيعها يتلهى بقراءة كتاب بين يديه، حتى تمر المعاملة من دون أن يوقعها إلى أن أتم مدة عضويته، فعكف على العبادة ودراسة كتب العلم، ولا سيما صحيح الإمام البخاري فقد كان مشغوفًا بتلاوته ومذاكرة أقرانه في مشكلات مسائله، ثم عرضت له مشاكل عائلية ضاق بها ذرعًا لعدم تمرسه بأمثالها من الأمور الدنيوية، وقد أثر ذلك في صحته فانتقل إلى جوار ربه سنة ١٣٠٤هـ، وكانت ولادته في حدود سنة ١٢٤٤هـ.

هذه معلومات عن أسرة «دارغوث» «المغربي». حدثني ببعضها الشيخ عبد القادر، ونقلت بعضها من أوراق وجدتها بخطه في خزانة كتبه، وإنما ألممت بها لأبين لكم طرفًا من أخبار الأسرة التي نبغ فيها شيخنا، والصلات القوية بين أجزاء العالم العربي مشرقه ومغربه، والحركات العلمية والاجتماعية التي كانت عليها بلادنا في القرنين الأخيرين.

هوامش

(١) هو عبد الرحمن بن عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد القادر بن عبد الله بن أحمد بن محمد المغربي التونسي من آل درغوث في تونس، وهي محرفة من «طورغود»، وهو اسم جدهم الأصلي طورغود باشا أمير البحر التركي المتوفى عام ٩٧٢هـ/١٥٦٤م، والمدفون بجامعه في مدينة طرابلس الغرب، كما ذكره مؤرخو تونس؛ ومنهم الوزير أحمد بن أبي الضياف في «تاريخ تونس»، والشيخ محمد السراج في «الحلل السندسية في الأخبار التونسية».

(٢) في هذه السنة وفي هذه المدينة ولد عبد القادر في ٢٤ رمضان ١٢٨٤، وقد هنأ بعض شعراء اللاذقية أباه به، ويظن أنه الشاعر عبد الرزاق الفتاحي اللاذقي. بقوله:

هنئت يا مصطفى بطفل طلعه نادى يا سعاده
«المغربي» إن زدته واحدًا أنباك عن تاريخ ميلاده

المغربي: ١٢٨٣ + ١ = ١٢٨٤هـ.

أوليته

ولد عبد القادر المغربي في اللاذقية، حيث كان أبوه قاضيًا، ثم انتقل إلى طرابلس الشام حينما انتقل أبوه إليها، وتلقى العلم فيها على أبيه وأفاضل رجالات أسرته، وكبار علماء بلدته، فكان أبوه يجمع له ضوابط منظومة من قواعد العلوم المختلفة ويحمله على حفظها، ثم ختم القرآن الكريم وهو ابن عشر سنوات، وحفظ المتون العلمية المشهورة كالألفية والأجرومية والسنوسية وجوهرة التوحيد، ثم لزم الشيخ حسين الجسر علَّامة طرابلس ومؤسس المدرسة الوطنية فيها، وكانت هذه المدرسة أول معهد علمي محدث، وقد وصف زميله في الدراسة الشيخ محمد رشيد رضا هذه المرحلة من عمرهما فقال في مقدمة كتاب البينات:

> سبقني المغربي إلى طلب العلم وسبقته إلى مطالعة بعض كتب الأدب والتصوف والتاريخ قبل طلب العلم …
>
> ولما دخلت المدرسة الوطنية في طرابلس الشام كان هو في الصف الأول من تلاميذها، وكان الشعر والأدب أول أسباب التعارف والتآلف بيننا، وكان موضع عجب مني في اجتهاده؛ إذا شرع في حفظ درس يضع رءوس إبهاميه في أذنيه وبقية أصابعه فوق عينيه، حتى لا يسمع صوتًا ولا يرى شيئًا، ثم يقرأ ما يريد حفظه قراءةً بصوت بين الجهر والمخافتة، ولا وسيلة لجمع الفكر وتوجيه قوة النفس أمثل من هذه الوسيلة، ثم عطلت المدرسة الوطنية وانتقل ناظرها أستاذنا الشيخ حسين الجسر الشهير إلى المدرسة السلطانية[١] في بيروت، وتبعه بعض تلاميذها، فدخلوها ومنهم صديقي صاحب «البينات» ولما تركها الأستاذ، وعاد إلى طرابلس عادوا معه؛ لثقتهم بتعليمه وتربيته، وانقطع

إلى تعليم فنون اللغة وعلوم الشرع، والتقينا ثانيةً عنده في المدرسة الرجبية، فكان لكل منا وجهة هو موليها في العلوم الشرعية، وإنما كنا مشتركين في طلب آداب اللغة والعلوم المصرية ومطالعة المجلات والجرائد حتى المصرية الممنوعة من البلاد العثمانية التي كانت تأتي في البُرد الأجنبية لقناصل الدول، فيطلعني عليها بعض أصحابي من أدباء النصارى، فنطالعها مجتمعين تارةً أو منفردين أخرى.[٢]

والحق أنَّ المغربي وصديقه رشيد رضا قد أفادا من شيخهما العلَّامة الجسر فوائد قومت تفكيرهما ووجهتهما الوجهة الصالحة حتى قال المغربي عنه: «وقد كان شيخي الجسر مصلحًا دينيًّا دقيق النظر، ولكنه مع هذا بقي طول حياته محافظًا متحفظًا شديد الحذر، وأهم ما استفدناه من طريقه في الإصلاح يمكن تلخيصه مما وقع لي في زمن الحداثة وطلب العلم.

ذلك أنني بعد أن تلقيت من دراستي على والدي الاستسلام إلى كل ما جاء في الكتب الموروثة عن أسلافنا الماضين، والتصديق بنصوصها من دون تردد ولا ارتياب، عدت فاقتبست من شيخنا الجسر تعاليم فيها شيء من حرية النقد وانطلاق الفكر، وقد تعلمنا أنَّ النصوص الدينية الموروثة فيها الغث وفيها السمين، وأنَّ بينهما ما هو غير صحيح ولا معقول ولا منطبق على القرآن ولا السنة النبوية الصحيحة فيجب الانتباه إليه والتنبه عليه، والتحذير منه، وتمييز غثه من سمينه، وحقه من باطله، ولتمييز الحق من الباطل في نقل الأخبار طريقتان:

(١) التدقيق في سند الخبر وروايته.

(٢) تدقيق النظر في إمكانية الخبر وعدم إمكانيته، وهذا ما قرره الفيلسوف العربي ابن خلدون في الكتاب الأول من مقدمته الذي بحث فيه عن طبيعة العمران ... فكان شيخنا الجسر رحمه الله في درسه إنما يشرح لنا ما قاله ابن خلدون في نظريته، وقد علمنا بأن ندقق الخبر ونعمق النظر، فليس كل نص يقبل، سواء أعقل أم لم يعقل، بل نزن كل ذلك بميزان القرآن والسنة وطبائع العمران ﴿اللهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾، بينما كان والدي رحمه الله، بسبب تربيته الأزهرية، لا يسمح لي في أن أنحو هذا النحو في النظر والتدقيق وإعمال الفكر في التفريق بين النصوص الدينية.

غير أني لما اتصلت بالسيد الأفغاني، وأنعمت النظر في دراسة تعاليمه، انتقلت في حياتي الفكرية إلى الدور الثالث أو الطور الثالث، وهو أن نفهم النص الديني فهمًا صحيحًا، مراعًى فيه قوانين اللغة، وقواعد بلاغتهما، ونستوثق من مطابقة النص للكتاب والسنة، ثم نجرأ على التصريح بما فهمنا من النص سواء أوافق رأي غيرنا أم لا. وقد اقتبسنا هذه الطريقة في الفهم من أقوال السيد الأفغاني وتعاليمه المروية المبثوثة في العروة الوثقى أولًا، ثم في سائر ما علق بكفنا من كتاباته وكتابات تلميذه الشيخ محمد عبده ثانيًا، فالأساس الذي بقي عليه الإصلاح الديني إذن هو تمييز نصوص الدين والحرص على فهمها فهمًا حرًّا، مستندًا إلى قواعد اللغة العربية وقوانين بلاغتهما، ثم الجرأة في الدعوة إلى الصحيح المعقول من تلك النصوص، واطِّراح الباطل الدخيل عليها، والجهر بذلك كله من دون جمجمة في قول أو تقية من ذي صول.»[٣]

والحق أنَّ شيخنا قد مرَّ في دراساته بأطوار أو أدوار ثلاثة:

أولها: دور الدراسة المنزلية في طرابلس أو الدراسة في المدرسة السلطانية ببيروت سنة (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م)، وقد كان فيه محافظًا أشد المحافظة، تلقى فيه علوم الدين الأولية، وحفظ ما حفظ من آي الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف، وبعض المتون الدينية واللغوية والكلامية، وكان في هذا الدور طالبًا مستسلمًا إلى كل ما يسمع، حافظًا لكل ما يقال له دون أن يناقش أو يتردد أو يرتاب.

وثانيها: دور حرية الفكر وانطلاقه ومحاكمة ما يسمع، وهو الدور الذي اتصل فيه بالشيخ حسين الجسر (١٨٤٥–١٩٠٩م)، وكان الشيخ الجسر هذا عالمًا فاضلًا واسع الاطلاع على الثقافة الإسلامية، تلقى علمه في الأزهر على كبار شيوخه، ثم رجع إلى بلده طرابلس، وكان ذا نزعة إصلاحية، فرأى ما عليه المسلمون من الجهل بحقيقة الدين، وقواعد العقيدة الإسلامية الصحيحة، فعمد إلى تأليف الرسائل الصغيرة ونشر المقالات المفيدة، مقومًا اعوجاج العقائد، وعاملًا على نشر الإسلام الصحيح، ومن أشهر ما خلف لنا في ذلك كتاباه اللطيفان: «الحصون الحميدية» و«الرسالة الحميدية» في تبيين العقيدة الإسلامية السلفية النقية من الأوضار والضلالات، وقد كان واسع الاطلاع على العلوم الطبيعية والفلسفية فزاده ذلك رسوخًا في فهم الدين وتنقيته مما علق به. وقد اتخذ الشيخ الجسر تلاميذه وكتبه جريدة «طرابلس الشام» وسائط لنشر دعوته الإصلاحية، وكان الشابان النابغان الطرابلسيان عبد القادر المغربي ورشيد رضا ألمع تلاميذه وأكثرهم استفادة من طريقته.

وثالثها: دور التعمق في الدراسة والمناقشة والبحث، وهو الذي اتصل فيه بجريدة «العروة الوثقى» التي كان يصدرها في باريس الإمامان الأفغاني ومحمد عبده، واسمعوه يتحدث إليكم عن أول صلته بالإمامين وجريدتهما فيقول:

أول ما فوجئت باسم جمال الدين كنت تلميذًا في المدرسة السلطانية، التي أمر بإنشائها في بيروت الوالي حمدي باشا سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م، وكان ناظر المدرسة يومئذ الشيخ أحمد عباس الأزهري، المشهور في بلاد الشام بعلمه وفضله والتهاب وطنيته، رأيت يومًا الشيخ أحمد بين الطلاب، وهم في ساحة المدرسة يرتعون ويلعبون وحوله طائفة منهم، وبيده جريدة يشير بها إليهم، وسمعته يقول لهم وقد سألوه عنها: إنها «العروة الوثقى»، يصدرها السيد جمال الدين الأفغاني، ويساعده في تحريرها صديقي الشيخ عبده المصري، وأفاض الشيخ أحمد في وصف «العروة»، والغرض من إنشائها ووصف الرجلين وعلوِّ مكانتهما، وبدرت منه التفاتة، وإذا تلميذان صغيران يمران أمامه، فأشار إلى أحدهما وقال: هذا ابن الشيخ عبده، وأشار إلى الآخر قائلًا: وهو أخوه حمودة، وكنت لا آبه بهذين التلميذين ولا أرتاح لرؤيتهما، فصرت من يومئذ أنظر إليهما بإجلال وأحب التقرب منهما والحديث إليهما، ورجعت إلى طرابلس الشام من المدرسة السلطانية عام ١٣٠١هـ حاملًا إلى صديقي الشيخ رشيد رضا صاحب المنار رحمه الله خبر «العروة الوثقى» ومنشئها، وأخذت أبحث عن أعدادها، وكانت ثمانية عشر عددًا مبعثرة لدى بعض فضلاء طرابلس الذين كانت تأتيهم عفوًا أو بطلب منهم، فجعلت ألتقطها من عندهم لأنسخها وأعيدها إليهم، وكان شريكي في هذا الحرص الشيخ رشيد، وكان هو ينسخ إليهم من مقالاتها، أما أنا فكنت أنسخها بقلمي من ألفها إلى يائها، ثم جمعت كراريسها في مجلد،[٤] ثم يورد افتتاحية العدد الأول ويعلق عليها بقوله: «هذه الفاتحة هي خلاصة برنامج العرض الذي أنشئت مجلة «العروة الوثقى» من أجله؛ تنبيه الضعفاء إلى ما يريده الأقوياء بهم، وشرح الأسباب التي أدت إلى ضعف الضعفاء وقوة الأقوياء، ويريد بالأقوياء سياسيي أوروبا وزملاءهم سياسيي الشرق الذين ساروا على آثارهم، وقلدوهم في استبدادهم بالضعفاء والتفريط في مصالحهم، فالأفغاني وعبده كانا يريدان أن يكون لهؤلاء

الضعفاء — وهم المسلمون — دول قوية آخذة بأسباب المدنية والعمران الموصلة إلى العزة والاستقلال مع مراعاة تعاليم الإسلام الأساسية.

فالشيخ المغربي في طوره الثالث هو تلميذ «العروة الوثقى» التي سيطرت على لبه سيطرة عجيبة استمعوا إليه يقول: «أعطيت العروة الوثقى كل وقتي دراسة وتفهمًا، وكنت أحيانًا أعنى بشرح ألفاظها وتعابيرها ... ولا جرم أنَّ «العروة الوثقى» مهدت بين يدي ناشئة العرب مناهج في الكتابة وأساليب الإنشاء ما كانوا يعهدونها من قبل، ونبهت إلى وجوب استعمال كلمات اللغة الفصحى والاستعانة بها على إيراد المعاني العصرية ومطالب الحياة الاجتماعية ... وقد تضمن العدد الأول مما يحتاج إلى الشرح من فصيح اللغة نحو ثلاثين كلمة.»[٥]

فأنتم ترون أنَّ الشيخ قد فنى في «العروة الوثقى» وفي تدارسها وشرح ألفاظها وانتقادها، وقد ذكر في كتابه عن «جمال الدين» طرفًا يسيرًا مما كان قد علق على نسخته المخطوطة من «العروة»، أحصى ما فيها من الكلمات اللغوية التي شرحها، فبلغت «في أعداد العروة كلها زهاء خمسمائة كلمة»[٦] ولا عجب فإن الشيخ كان مفتونًا باللغة ومفرداتها منذ نعومة أظفاره.

ولم يكن تأثير «العروة الوثقى» في الشيخ من الناحية اللغوية والأسلوب وحسب، بل من الناحية الفكرية فقد قال: «إني لما اتصلت بالسيد الأفغاني وأنعمت النظر في دراسة تعاليمه انتقلت في حياتي الفكرية إلى الدور الثالث أو الطور الثالث، وهو أن نفهم النصَّ الديني فهمًا صحيحًا مراعًى فيه قوانين اللغة وقواعد بلاغتها، ونستوثق من مطابقة النص للكتاب والسنة، ثم نجرأ على التصريح بما فهمناه من النص سواء أوافق رأي غيرنا أم لا. وقد اقتبسنا هذه الطريقة في الفهم من أقوال السيد الأفغاني وتعاليمه المروية والمبثوثة في «العروة الوثقى» أولًا، ثم في سائر ما علق بكفنا من كتاباته وكتابات تلميذه الشيخ محمد عبده ثانيًا، فالأساس الذي بنى عليه الإصلاح الديني إذن هو تمييز نصوص الدين والحرص على فهمها فهمًا حرًّا مستندًا إلى قواعد اللغة العربية، وقوانين بلاغتها، ثم الجرأة في الدعوة إلى الصحيح المعقول من تلك النصوص والتعاليم واطِّراح الباطل الدخيل عليها، والجهر بذلك كله من دون جمجمة في قول أو تقية من ذي صول.»[٧]

واستمر الشيخ في هذا الدور طوال عمره يدأب ويجد، ويدرس ويجتهد حسب شروط الاجتهاد السابقة، حتى كانت له آراء ونظريات نعرض لها فيما بعد إن شاء الله،

وقد تمرس بهذا الأمر تمرسًا حينما ازدادت صلته بالشيخين، واجتمع إليهما في الآستانة أو في القاهرة، فأفاد من صحبتهما واجتهد في السير على غرارهما يتتبع آثارهما ويقرأ لهما، ودفعه الشوق لرؤية جمال الدين،[8] وكان في سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م مقيمًا في دار الخلافة، فسافر إليه وظل في جواره سنة واحدة أفاد فيها منه فوائد جليلة ضمن كثيرًا منها في كتابه اللطيف عن جمال الدين، ثم رجع إلى طرابلس عاكفًا عن دراسة آثار جمال الدين، وأولع بعدئذ بدراسة آثار الشيخ محمد عبده، واستجاب إلى دعوته الخيِّرة، وشرع يصدع بالإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي فاستدعاه الإمام محمد عبده إلى مصر حيث المجال للدعوة الإصلاحية آنذاك أرحب وأوسع، ولكن ما لبث الأستاذ الإمام أن لقي وجه ربه[9] فانصرف المغربي إلى الصحافة، وكتب في كبريات جرائد مصر مقالات أثارت العزائم وشحذت الهمم الغافية.[10]

يقول رشيد رضا واصفًا الحقبة التي سبقت سفر المغربي إلى القاهرة سنة ١٩٠٥: ولما اشتد اضطهاد الحكومة الحميدية للأحرار، وأصحاب الأقلام والأفكار، وأسرفت في إيذاء قراء المنار، كان نصيب صاحبي ونصيب آخرين من أهل العلم والفضل السجن، فلما أنقذه الله تعالى منه هاجر إلى مصر، فسألت شيخنا الأستاذ الإمام أن يجعله كاتبًا للإفتاء عنده، فارتاح لذلك واستكتبني مذكرة لوزارة الحقانية في ذلك، وهو في سرير المرض الذي توفاه الله تعالى فيه؛ لأنه تعالى قدر أن يكون هذا الرجل كاتبًا اجتماعيًّا لا قاضيًا ولا كاتبًا شرعيًّا. وهو لو لم يكن موطنًا نفسه على هذا العمل، ولا شاعرًا بقوة استعداده له، حتى إنه لما دعي إلى الكتابة في الجرائد المصرية استشارني في الموضوعات التي ترجى فائدتها وتلقيها بالقبول، وفي الأسلوب الذي يحسن اختياره، ولعله ما أبهم إمضاءه «المغربي» فلم يصرح باسمه إلا لأن شعوره باستعداده كان دون قوته، كما هو شأن طلاب الكمال الذي لا حد له بعد أن يصيبوا حظًّا عظيمًا منه، وأما الناقصون المغرورون، فإنهم يتيهون عجبًا بكل ما يخطونه[11] والحق أنَّ المغربي لو سلك سبيل القضاء والوظائف الرسمية لضاع في ذلك الخضمِّ، ولكن انصرافه إلى الكتابة جعل منه فردًا من بناة حركتنا الإصلاحية، وقد كان في القاهرة يحرر في جريدتي «الظاهر» و«المؤيد» حتى عرفه الناس على الرغم من توقيعه مقالاته بتواقيع مستعارة، إلى أن انزاح كابوس الظلم الحميدي عن البلاد الشامية بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨م فرجع إلى بلدة طرابلس الشام سنة ١٩٠٩م.

أخذ المغربي بعد اتصاله بالأفغاني ومحمد عبده يجهر بضرورة الإصلاح الديني والاجتماعي، والتنبيه إلى تأخر المسلمين ولزوم إحداث انقلاب ديني اجتماعي يعود بالمسلمين إلى بساطة الدين وأصوله الثابتة، كما كان يجهر بانتقاد الطريقة التي كان عليها رجال العهد الحميدي في إدارة البلاد العثمانية وأسلوبهم في الحكم مما أخر المسلمين عن أمم الأرض، وكانت رسائله بهذا الشأن لا تنقطع إلى الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا، الذي سبقه في السفر إلى مصر عام ١٣١٥هـ، وقد عثرنا على بضعة أبيات من قصيدة كان المغربي نظمها، يخاطب بها السلطان عبد الحميد، وينتقد سياسته الداخلية انتقادًا شديدًا وإهماله إصلاح أحوال المسلمين من رعيته وهي قوله:

بلِّغ أميرَ المؤمنينَ نصيحةً ... تبغي القبول ولا تريدُ ثوابا
قبر تعمِّره ببدرة عسجد ... وتعيد عمران البلادِ خرابا[١٢]
تكسو الدعيَّ الحُلة البيضاء إذ ... تكسو الشعوب من السواد ثيابا
تجبي الضرائب من فقير مملق ... تغني بها المتملق الخلَّابا
تُقصي إلى الأطراف كلَّ محنَّك ... وتبيت تُدني النَّوك والأوشابا
كم من بريء صادق حكمت في ... حوبائه المتجسس الكذابا
بل هذه الخصيان كيف تقدمت ... بيض الفحول السادة الأنجابا؟
ضيَّعت ملكك وامتهنت رجاله ... فعَلامَ تحوي التاج والألقابا؟

ثم إنَّ الحكومة الحميدية لم تجد بدًّا من اعتقاله، فأوعزت «سلطات المابين» في الآستانة بذلك إلى خليل باشا البكدشلي والي بيروت، فحضر إلى طرابلس بنفسه، واعتقل المترجم في أوائل عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م ليلًا، ثم ساقه إلى بيروت ليلًا تحت حراسة شديدة خوفًا من هياج الرأي العام وأقارب المترجم، وهم كثيرون، وقد بقي موقوفًا عدة أشهر في «دائرة البوليس» بسراي البرج، ثم إنَّ الحكومة وضعت يدها على مكتبته وأوراقه، وأخذ الوالي بنفسه يمعن فيها بحثًا وتنقيبًا، ولكنها في نهاية الأمر أعادت إليه بعضها بعد خروجه من المعتقل، ولما أفرج عنه بعد أشهر، واتصل ذلك بعلم الأستاذ الإمام الشيخ عبده استدعاه إلى مصر، وقدم إلى وزارة مصطفى فهمي باشا طلبًا بتسميته كاتب فتوى لديه، وحين وجد المغربي أنه لم يعد في وسعه البقاء في البلاد العثمانية تحت هذه المراقبة الشديدة من رجال عبد الحميد استطاع الإفلات والسفر خلسة إلى قبرص في الباخرة الخديوية ومنها إلى مصر، فبلغها في ١٧ ربيع الثاني ١٣٢٣هـ الموافق ٢٠ يونيو ١٩٠٥م،

ولكن المنية كانت قد عاجلت المفتي الشيخ محمد عبده بعد وصوله إليها بقليل، فعكف على الاشتغال بالصحافة محررًا في جريدة الظاهر التي كان يصدرها المحامي المشهور إذ ذاك «محمد بك أبو شادي»، ثم دعاه الشيخ علي يوسف للمشاركة في تحرير «جريدة المؤيد» خلفًا للمرحوم السيد عبد الحميد الزهراوي، فاتسع له فيها المجال لنشر فكرة الإصلاح الديني والاجتماعي، ونقد أوضاع المؤسسات الدينية ومنها الأزهر الشريف، وقد كتب عشرات المقالات في هذا الموضوع وفي البحوث الدينية واللغوية والأدبية الأخرى، وظل يحرر في «جريدة المؤيد» إلى أن أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨م، فعاد إلى سورية في عام ١٩٠٩م، وواصل الكتابة في «المؤيد» والصحف المصرية الكبرى كاللواء، والشعب، والعلم، ومجلة الهداية وبعض صحف بيروت، ومما نشره في المؤيد يومئذ مقال بعنوان «حجاب المرأة في الإسلام»، تناقلته عنها الصحف السورية، وكان له تأثير عميق في البلاد، وحمل عليه المحافظون من أجله حملات منكرة.

وفي عام ١٩١١م/ ١٣٣٠هـ أنشأ في طرابلس الشام جريدة باسم «البرهان»، وكانت مباحثها تدور حول بعض أمور سياسة الدولة الداخلية، وموضوعات الاجتماع الإسلامي، والدعوة إلى وحدة الكلمة، والعمل على تكوين كتلة إسلامية قوية تستطيع أن تقف في وجه مطامع أوروبا. وكان يمدها بالمقالات بعض كبار الكتاب كالأمير شكيب أرسلان المؤرخ المصلح المشهور، والأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي — أديب فلسطين الكبير — وغيرهما من كبار كتاب العصر، ولكنه اضطر إلى وقفها عند اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العامة أواخر عام ١٩١٤م؛ لأن أكثر مشتركيها في مصر والهند، وقد دعته الحكومة العثمانية في تلك السنة إلى الانضمام إلى الشيخ عبد العزيز جاويش والأمير شكيب أرسلان، والسفر إلى المدينة المنورة؛ لتأسيس كلية إسلامية فيها، أطلقت عليها الحكومة اسم «معهد دار الفنون»، فأسسوها باحتفال حافل إلا أنَّ نشوب الحرب العامة قضى على ذاك المعهد. ثم أنشأت وزارة الأوقاف العثمانية في القدس عام ١٩١٥م كلية دعتها «الكلية الصلاحية»، وكان الغرض منها تخرج علماء ومبشرين بالدين الإسلامي، يجمعون بين العلوم الدينية والعلوم العصرية، فاشترك المغربي في تأسيسها وتنظيم شئونها مع الشيخ عبد العزيز جاويش والأمير شكيب أرسلان، وأخذ يدرس فيها الآداب العربية وفنون البلاغة والسيرة النبوية إلى أن أسست الحكومة العثمانية في دمشق عام ١٩١٦م «جريدة الشرق»، وسمَّته مديرًا لهيئتها التحريرية، فانتقل إلى دمشق وأخذ ينشر في الجريدة مقالات في الأدب والتاريخ والإصلاح الإسلامي، ومما نشره فيها عام ١٩١٦م

مقال بعنوان «النهضة الدينية في الأمة الإسلامية»، دعا المسلمين فيه إلى التجدد ونبذ الخرافات، وقد أحدث دويًّا في البلاد بين الشيوخ وأرباب التقليد، وأعيد طبع المقال فيما بعد في الجزء الثاني من «كتاب البيِّنات»، ولما رزحت سورية تحت الاحتلال الإنكليزية — الفرنسي في أواخر عام ١٩١٨م لزم الشيخ داره وعكف على التأليف، ومن تآليفه التي أتمها في تلك الحقبة تفسيره لجزء «تبارك»، وقد حذا فيه حذو الأستاذ الشيخ محمد عبده في تفسيره لجزء «عمَّ».

وحاول المحتلون الفرنسيون أن يعهدوا إلى الشيخ بعض الأعمال العلمية والدينية، ومنها إفتاء طرابلس للإفادة منه، ولكنه كان يرفض بإباء إذ كان متشائمًا من الحالة التي آلت إليها البلاد بعد أن رأى الإنكليز والإفرنسيين يقسمون بلاد الشام إلى مناطق ودويلات صغيرة، ويغدرون بالملك حسين حليفهم وينفونه إلى قبرص وكثيرًا ما كان ينشد قول أبي العطاء السندي في بني أمية:

أليس الله يعلم أنَّ قلبي ... يُحب بني أمية ما استطاعا
وما بي أن يكونوا أهلَ عدلٍ ... ولكني رأيت الأمر ضاعا

ولما أنشأت حكومة المرحوم الملك فيصل بن الحسين في دمشق «ديوان المعارف»، الذي سُمِّيَ فيما بعد «المجمع العلمي العربي» كلفته أن يكون عضوًا عاملًا فيه فلم يتردد في القبول؛ لأنه رآه بعيدًا عن جو السياسة، ووجد أنَّ العمل فيه يساعده على خدمة اللغة العربية ومدها بالمصطلحات العلمية الجديدة، فعكف على العمل في المجمع من وضع مصطلحات علمية وتصحيح أخطاء شائعة وإلقاء محاضرات كثيرة ممتعة في مواضيع مختلفة بلا كلل ولا ملل، وعهد إليه أيضًا في عام ١٩٣٣م بتدريس اللغة والآداب العربية في كلية الحقوق بالجامعة السورية، حتى إذا كان عام ١٩٣٤م أصدر فؤاد ملك مصر مرسومًا بتسميته عضوًا عاملًا في مجمع اللغة العربية الملكي بمصر، وهو الذي أطلق عليه فيما بعد اسم «مجمع اللغة العربية»، فكان لا ينقطع عن السفر إلى القاهرة في شتاء كل سنة لحضور جلسات هذا المجمع والمذاكرة مع إخوانه الأعضاء في مواضيعه، وتزويد مجلته بالكثير من المقالات والأبحاث العلمية واللغوية المختلفة.

وكان أصاب «المجمع العلمي العربي» في دمشق عام ١٩٣٣م بعض الاضطراب، واضطر إلى التوقف لأزمات مالية طارئة، فانقطعت مجلته عن الصدور، إلى أن كان عام ١٩٣٥م فعهدت الحكومة السورية إلى المغربي برئاسة مجمع دمشق فقام بأعبائها على

غير رضًى منه؛ لأنه كان يحب البعد عن الأعمال الإدارية التي تحول بينه وبين الانقطاع للعلم والتفرغ للبحث، فأعاد إصدار المجلة كسابق عهدها، ثم عادت الأزمة المالية مرة ثانية في عام ١٩٣٧م، فتوقفت المجلة أيضًا عن الصدور حتى أوائل عام ١٩٤١م، ثم أعيد إصدارها بعد أن وضعت لها المخصصات الكافية في الميزانية، وعاد المغربي إلى أعماله العلمية، يشغل منصب نائب رئيس المجمع بعد أن أسندت الرئاسة إلى المرحوم محمد كرد علي، فاستأنف بحوثه العلمية واللغوية وإلقاء المحاضرات الشيقة الممتعة، وفي عام ١٩٤١ انتخب عضوًا في «المجمع العلمي العراقي» ببغداد، فكان يمدُّ هذه المجامع الثلاثة بآرائه وبحوثه التاريخية والأدبية واللغوية بدون انقطاع إلى أن اختاره الله إلى جواره، بعد أن خلَّف للخزانة العربية عددًا كبيرًا من المؤلفات والمحاضرات والأبحاث.

أما مؤلفاته فنتكلم عن كل منها فيما بعد، وأما محاضراته التي تنيف عن المائة محاضرة فقد كان ألقى أكثرها في قاعة المجمع العلمي بدمشق والباقي في بعض المدن السورية واللبنانية والمصرية في غضون ثلاثين سنة، نشر شيء منها في مجلدات المحاضرات الثلاثة التي أصدرها المجموع المذكور، وأما أبحاثه العلمية المتنوعة ومقالاته التي تدور حول الإصلاح الديني والاجتماعي والتاريخ والأدب، فإنها جد كثيرة، وكان نشر معظمها في «جريدة المؤيد» كما أنَّ أبحاثه اللغوية وآراءه في تنمية اللغة والعربية وإحياء ألفاظها وما إلى ذلك، فهي مبثوثة في مجلة مجمع اللغة العربية المصري، ومجلة المجمع العلمي في دمشق.

وكان للمغربي شعر هو أقرب إلى شعر العلماء، كان قاله في أول نشأته الأدبية، ثم لما خاض غمار الكتابة والتأليف أعرض عن النظم إعراضًا تامًّا، على أنَّ له بعض المقطعات التي نظمها في بعض المناسبات، وهي متينة التركيب ولطيفة المعنى.[١٣]

وكان المغربي إذا ما قرأ كتابًا قديمًا أو حديثًا علق عليه هوامش وتعليقات وشروحًا لو جردت وطبعت لبلغت كتابًا يفوق الأصل، وقد رأيت في خزانة كتبه الكثير من ذلك، كما رأيت طائفة كبيرة من الكراريس كان لخص فيها في حداثته بعض العلوم الدينية واللغوية والكونية، وشرحًا على دواوين البحتري والمتنبي وأبي تمام. وخزانة كتبه تعتبر من الخزائن المشهورة في سورية لما حوته من الكتب المخطوطة في علوم الدين واللغة، حتى إنَّ بعضها يعد من الكتب النادرة، هذا فضلًا عن الكتب المطبوعة في مختلف الفنون، وقد كتب الأستاذ المرحوم عبد الله مخلص مقالة طويلة عن نفائس ذخائرها في مجلة المجمع العلمي العربي.

هذه خلاصة أولية عن الرجل وسيرته وحياته العلمية. أما أخلاقه وطبائعه ومزاياه فنوجز الكلام فيها بقولنا: كان حرَّ الفكر صريحًا متشددًا في رأيه، لا يحيد عنه متى اقتنع أنه صواب، صابرًا على هجمات خصومه في سياساته وآرائه الدينية لا يبالي بهم، وكان النصر بجانبه في أكثر الأحيان، وكان بعيدًا عن الدنيا وحطامها، لم يسع قط إلى منصب أو فائدة مادية مهما عظمت، وكان كثير الاهتمام بشئون العالم الإسلامي وجمع شتات المسلمين والسعي لرفع مستواهم ومجاراة الأمم الأخرى، والتدليل على أنَّ الدين وأصوله تحض على كل ما فيه الخير للبشر، ويظهر هذا بصورة جلية في مقالاته المنشورة في «المؤيد» وفي كتاب البيِّنات ومحاضراته العديدة، وإنَّ رسوخه وطول باعه في علوم اللغة العربية وأسرارها. ولا سيما تمكنه من علم الصرف، كان يساعده كثيرًا على التعمق في فهم النصوص الدينية وأقوال شعراء العرب والألفاظ التي نقلت عنهم واشتقاقاتها وإدراك المراد منها، ويظهر هذا في تفسيره لجزء تبارك، وفي كتابه الاشتقاق والتعريب، ولا ننسى جولاته الواسعة في شرح الحقوق التي منحها الإسلام للمرأة ودفاعه عنها في مناسبات عديدة، كما أنه كان رحمه الله واقفًا بالمرصاد لكل متهجم على الدين الإسلامي أو على اللغة العربية، فكان يقارعهم بقلمه ويدفع الحجة بالحجة، بأسلوب رفيع في المتانة وقوة الدليل، وكان أسلوبه بعيدًا عن الإسفاف، ولم ينقل عنه أنه استعمل في ردوده ألفاظًا نابية أو عبارات شائنة، كما كان يتصف بصفة قلما جاراه فيها أحد من العلماء في عصره، وهي الصبر على العلم والبحث والتأليف ساعات معتزلًا في غرفة عمله، مكبًّا على كتبه وقراطيسه بلا كلل ولا ملل، وقد نقل عنه أنه في حداثته كان يقبع في غرفته أيامًا خاليًا بنفسه، لا تفتح غرفته لأحد إلا للخادم التي تناوله طعامه.

ومما تجدر الإشارة إليه هو سعيه المتواصل إلى توسيع أفقه العلمي والثقافي منذ فجر حياته، فقد أولع منذ حداثته بدراسة اللغة الإفرنسية وحفظ الشيء الكثير من أشعارها، غير أنه كان يصعب عليه الكلام بها؛ لأنه تلقاها عن الكتب والمعاجم وعن أساتذة سوريين، ولم يتعلمها على أبنائها، وقد كان مع ذلك يحسن الترجمة عنها مستعينًا بالمعجم، وقد ترجم أثناء إقامته في مصر رواية «غادة الكاميليا» لإسكندر دوماس، ومثَّلها الشيخ سلامة حجازي في عام ١٩٠٨م.

وكان للمغربي في محاضراته العامة ودروسه التي يلقيها على طلابه في الجامعة السورية أسلوب هو الغاية في الطلاوة، كما كان له صوت حسن الجرس جهوري المقاطع، ينحدر كأنه السيل بلا تلعثم ولا توقف، كل ذلك ببيان مشرق، وأسلوب أخَّاذ بحيث

لا يملُّ سامعه مهما أطال. وكانت له قدرة بارعة على شرح عويصات المسائل العلمية، وأسرار العربية وتقريبها من الأفهام بالشواهد وضرب الأمثال.

هذه صفحة عن نشأة عبد القادر المغربي وسيرته، وهي — كما ترون — صفحة مشرقة تصور حياة شخصية عاملة عاملة قام صاحبها بقسط ليس باليسير في خدمة دينه ولغته وبلاده وقوميته العربية.

هوامش

(١) أسسها في بيروت والي سورية حمدي باشا في سنة ١٣٠٠هـ على طراز المدارس الحديثة؛ ليستغني المسلمون عن مدارس المبشرين، فكانت نواة تكونت حولها جمعية المقاصد الخيرية المشهورة ومدارسها.

(٢) مقدمة كتاب البينات الجزء الثاني للشيخ محمد رشيد رضا /د، هـ/.

(٣) انظر كتاب «جمال الدين الأفغاني ذكريات وأحاديث»، طبعة دار المعارف ص٤٣–٤٥.

(٤) جمال الدين الأفغاني ص١٣–١٦ وقد رأيت مجموعة العروة الوثقى بخطه في خزانته.

(٥) كتاب جمال الدين الأفغاني ص١٦-١٧.

(٦) كتاب جمال الدين الأفغاني ص٤٥.

(٧) انظر كتابه عن «جمال الدين الأفغاني» ص٤٥.

(٨) يقول المغربي في كتابه عن جمال الدين الأفغاني ص٣٥: إنه بارح طرابلس إلى دار الخلافة للدخول في بعض معاهدها العلمية، ويقول الشيخ رشيد رضا في مقدمته للجزء الثاني من كتاب البيِّنات /و/: إنه ذهب إليها للانتظام في سلك القضاء الشرعي ... ولم ينجح في طلب القضاء، ولو نجح لحال القضاء والقدر دون اشتغاله بالتحرير والإنشاء؛ ولحرمت أمته العربية من هذه الآيات البينات. وليس بين القولين اختلاف، فإن طلاب وظائف القضاء أو نواب القضاء — كما كانوا يسمونهم آنئذ — كانوا يدخلون في معهد خاص في الآستانة، ثم يتخرجون منه نواب قضاة في أنحاء الإمبراطورية العثمانية.

(٩) توفي الإمام محمد عبده في ١١ تموز (يوليو) ١٩٠٥.

(١٠) انظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ٣ / ٤٩٩.

(١١) انظر مقدمة البيِّنات الجزء الثاني (د).

(١٢) يشير إلى الأموال الطائلة التي أمر السلطان عبد الحميد الثاني بإنفاقها على بناء زاوية وضريح لوالد شيخه السيد أبي الهدى الصيادي الرفاعي في حلب.

(١٣) ومنها قوله في وصف مرضه «كف الأسد» وغيرها وبذكر تداويه بالبنسلين:

كفكفت كفك يا أسد ... يا أيها الخصم الألد
بالله ثم بالبنسلين ... وقل هو الله أحد
وأويت من ربي ورحمته ... إلى ركن أشد
أنشبت ظفرك في لا ... ترثى لبنت أو ولد
أو صاحب يرجو لي إلا ... بلال من سقم الجسد
ونسبت في الآجال ما ... حكم الإله وما وعد
هذا يعجل حتفه ... وحياة ذا أنسًا ومد
أرسلت طير الشؤم منـ ... ـقضًّا فحام وما ورد
وسللت سيف البغي منسلطًا ... فحاك وما عضد
ورميت سهمك خلسةً ... فأصاب درعًا من زرد
إن كنت ترصد موتتي ... فالبنسلين لك الرصد
أو إن أردت مساءتي ... فالله ربي لم يرد
وأراك مغري بالشيو ... خ تسومهم برح الكمد
متهددًا متوعدًا ... لا بالصداع ولا الرمد
بل بالتصلب والحصا ... والضغط أو ريح السدد
والفلج والرئيات أو ... مرض المثانة والدرد
والكل سهل هين ... في جنب تخليط الفند
هي علة في الرأس لكن ... ذكرها عم البلد
هي علة في النكر تحكي ... الكفر بالله الصمد
هي علة قد رد صا ... حبها إلى عمر نكد
من بعد علم لم يعد ... يدري ولا سرد العدد
هي علة أيعيش صا ... حبها بجد أم بدد
عدوه في الأحيا وفي ... الأموات أجدر أن يعد
فأعجب له يمشي على الأ ... رضين هامًا قد لحد

يـا رب تـلـك شـكـيـتـي   فـاغـفـر ووفـق لـلـرشـد

وقال أيضًا:

أيا ابن الثورة الكبرى تقبل   دعـاءً مـن أخٍ ثـقـة صـمـيـم
تركت حمى العروبة لهف قلبي   عـليـه لـقـى لـصـهـيـون لـئـيـم
ورحت تقيم في الأفغان تشدو   «ألا حـي الـمـنـازل بـالـغـمـيـم؟»

قالها على لسان الدكتور خالد الطباع؛ ليرسلها إلى المرحوم الشيخ فؤاد الخطيب الشاعر المشهور، وقد عين وزيرًا مفوضًا للملك ابن سعود في الأفغان — واستوحى المعنى من بيتين لبعض ظرفاء الأعراب وهما:

رددت مـخـافـة الـحـجـاج أني   بكابل في است شيطان رجيم
مـقـيـم فـي مـضـارطـه أغـنـي   ألا حـي الـمـنـازل بـالـغـمـيـم

وقال أيضًا يخاطب الشيخ العالم الإيراني المشهور أبا عبد الله الزنجاني:

إليك أخي في الله أحكي شهادة   تجلي لعين الناس كنه دخائلك
فـلـسـتَ بـسـنِّـي ولـسـتُ بـشـيـعـة   ولكن إلى القرآن رجعي شمائلك

ومن ذلك قوله:

يا صديقًا لقد ملكت بصدق القول   ودي فـكـنـت خـيـر صـحـابـي
إنَّ شـوقـي إلـيـك أعـظـم مـن أن   يـشـرح الـمـرء كـنـهـه فـي كـتـاب

وقوله:

ومـا ألـذ الـحـيـاة لـولا   مصائب المرء في حياته
يموت كل امرئ لعمري   بقدر من مات من لداته

المغربي الصحفي والمصلح

رأيتم أنَّ المغربي كان مؤمنًا بأنَّ الصحافة هي الوسيلة الوحيدة للإصلاح وإنقاذ الأمة الإسلامية من ربقة الجهل والفوضى والتقهقر، وأنَّ أشياخه في الشام ومصر كانوا يتخذونها أداة لإبلاغ آرائهم، ونشر أفكارهم ودعوة الناس إلى مذاهب الخير التي يرتئونها.

ولذلك عمد إلى السير في هذا الطريق، فانصرف إلى الصحافة يمارسها، وينشر بوساطتها آراءه منذ أن امتشق القلم في مصر سنة ١٩٠٥ بعد وصوله إليها بسبعة أشهر إلى أن توفاه الله.

وقد أبقى لنا في خزانة كتبه أضابير جد قيمة أحصى فيها مقالاته الصحفية ورتبها ترتيبًا دقيقًا كاملًا منذ سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩٥٦، وكأنه كان يريد نشرها في مجلدات، فقد صنفها تصنيفًا متقنًا، وكان قد نشر قسمًا منها في مجلدين سماهما «البينات» ضمنهما بعض مقالاته التي كتبها ما بين سنتي ١٩٠٦–١٩١٠م.

ونحن إذا رحنا نعرض مقالاته ورسائله الصحفية ونستقرئ بحوثها العلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية نجد له في سنة ١٩٠٥ مقالًا واحدًا نشره في المقطم، ولعله أول مقال كتبه، وكان عنوانه «التمثيل العربي»،[١] وقد كتب على هامش الجزازة التي تحوي المقالة «كتبتها بعد وصولي إلى القاهرة بسبعة أشهر في سنة ١٩٠٥م/١٣٢٣هـ»، ولعلها أول مقالة كتبها في مصر.

ونحن إذا درسنا تلك المقالة دراسة دقيقة نجد أسلوبًا مشرقًا وأفكارًا نيرة وملاحظات وتوجيهات تدل على سمو فكر الكاتب على الرغم من ثقافته البسيطة ومحيطه الأولي الذي تخرج فيه. فقد ابتدأ مقالته بتبيين فوائد التمثيل وقرنه إلى صنويه؛ الصحافة والخطابة، بل هو يذهب إلى تفضيله على الصحافة والخطابة؛ لأنه أقربها تأثيرًا وأنجعها علاجًا في تربية الأمم ووسائل تهذيبها.

ثم شرع في تصوير التمثيل، وكيف أنَّ الممثل يعمد إلى حادثة مشهورة، أو رواية مأثورة فيعرضها على الأنظار، ويقلد رجالها وكل من له مشاركة في حوادثها متحريًا محاكاتهم في أزيائهم وهيئاتهم وعادتهم وسائر ملابسهم.

والمغربي في وصفه عمل الممثلين واصف بارع دقيق الملاحظة مبسط للأمور المعقدة، شارح للقضايا الغامضة شرحًا يدلنا على دقة تفكيره وسلامة بصيرته وبخاصة حين يقول إنَّ «فن التمثيل إذن محاكاة وتقليد، والتقليد والمحاكاة غرائز من غرائز الإنسان نشأت معه مذ كان على بساط بساطته الأولى، انظر إلى الطفل فإنه لا تمسه نفحة من العقل، حتى يأخذ في تقليد من حوله ومحاكاتهم في أقوالهم وأعمالهم، فلا غرو إن كانت النفوس بالتمثيل أعلق، وإليه أحن وفيه أرغب»، ويبين المغربي بعدئذ أنَّ الهدف من التمثيل هو إصلاح الشعوب وتقويم النفوس والاحتيال على سوق الناس إلى ما يريده بهم المصلحون، إما عن طريق الأساليب البلاغية، أو ضرب الأمثال، أو تصوير الوقائع التاريخية، أو نحت التماثيل أو الغناء، وأنَّ التمثيل هو جماع تلك الفنون إذ يتناول الكاتب المؤلف الحادثة التاريخية فيضربها مثلًا يتجلى فيه جمال الفضيلة بأبهى مظاهرها وقبح الرذيلة بأبشع صورها، ثم يكسو ذلك من جلابيب البلاغة والشعر والتلحين والتصوير ما شاء وشاء تمكنه من نواحي تلك الفنون.

ثم يذكر المغربي اهتمام كتبة الفرنج بالتأليف في فن التمثيل؛ لأنهم وجدوا فيه ضالتهم من قيادة الشعب وسوقه من حيث يشعر أو لا يشعر إلى تربية ملكاته، ثم يلتفت المغربي بعدئذ إلى قومه فيرى حالتهم الاجتماعية المتقهقرة، ويتمنى أن يعظم شأن هذا الفن الاجتماعي الإصلاحي بين ظهرانيهم، ثم يثني ثناءً طيبًا على رائد هذا الفن في مصر الشيخ سلامة حجازي، ويصفه بأنه ممثل بارع ممتاز ببراعته، وبذلك وسعه في تحسين الفن والسعي لإتقان أساليبه حتى كاد يتجاوز به طور الطفولية، فيجب على أفاضل البلد وجمهور الكتاب أن يشجعوه ويشدوا أزره فيما يهدف إليه.

ولا ينسى المغربي أن يحرض من آنس من نفسه استعدادًا وميلًا فطريًّا إلى هذا الفن أن يعكف عليه، وأن يتأهب له أهبته بالإكثار من قراءة الروايات الإفرنجية واستظهار جيدها وترجمة المفيد منها، ثم يعرض بهذه المناسبة إلى موضوع ترجمة الروايات والتمثيليات التي هب الناس في ذلك الوقت إلى ترجمتها، فينقدها نقدًا علميًّا صحيحًا، ثم يعرض إلى الروايات المؤلفة ويقارن بينها وبين الروايات المترجمة ويقول: «ومن أوتي حظًّا من الفهم في هذا الفن أدرك لأول وهلة الفرق بين الروايات المترجمة والأخرى

الموضوعة وضعًا فإنَّ حوادث الأولى تسرد على نسق غريب في أسلوب عجيب فهي كأنها متكافلة طورًا، يفسر السابق اللاحق وآونة يوضح المتأخر المتقدم.» ولا يسمع السامع حادثة منها حتى تنشب أنفاسه في حلقه مبهوتًا متشوقًا إلى معرفة ما يليها فإذا سمعه وقع من نفسه موقع الدهشة والاستغراب، وليس كذلك الروايات الأخرى — أي الروايات المؤلفة — حتى ما ينسب إلى أشهر المشتغلين في الفن، ويطيل المغربي في نقد الروايات المؤلفة ثم يقول: إنَّ كتابها يغفلون عن إيضاح مغزاها والغرض المفيد الذي وضعت من أجله من حث على فضيلة أو تغيير رذيلة بعبارات جلية وأساليب واضحة بحيث تسترعي أسماع النظارة، ولا ينسى أن يوجه ملاحظاته في آداب الاستماع والاعتبار، وبما يجب على النظارة أن يتحلوا به من الحشمة فيقول: «أما النظارة المتفرجون فإن أكثرهم لاهٍ عن تعرف الأسرار بهتك الحجب والأستار، مشغول عن تفهم الحكم والفضائل بما فوقه مائل وليس تحته طائل، إنه يحسن بنا أن نتشبث بالحشمة والوقار وندع الطيش وخيانة الأبصار ونترك كثرة اللغط والضوضاء، سيما عندما يروقنا شيء من أقوال الممثلين وأفعالهم، فإنَّ اللغط يحرمنا فهم تتمة السياق؛ بل ربما شوش على الممثلين أنفسهم، فلا يدرون أيمضون في حديثهم أم يسكتون، بينما يفرغ القوم من جلبتهم وضوضائهم.»

هذه هي ملاحظات المغربي وأقواله في وصف مسارح التمثيل المصري قبل نصف قرن، وهي لعمر الحق ملاحظات جد لطيفة، وأقوال تدل على عمق الملاحظة.

أما لغته في مقاله هذا فهي كما ترون لغة بسيطة قريبة المنال أفلت فيها من كثير من قيود الكتاب في عصره ومن صناعاتهم اللفظية، اللهم إلا بعض السجعات والجمل المترادفة، والمفردات المتكررة التي تدل على أنَّ الرجل كان حتى ذلك الحين متأثرًا بالأساليب القديمة على الرغم من محاولته التملص منها. وسنرى أنه في مقالاته التالية سينطلق شيئًا فشيئًا من قيود الكتابة القديمة ويسيل قلمه بقوة عجيبة.

ولما أطل عام ١٩٠٦م انخرط المغربي في المحيط المصري، وانضم إلى أسرة جريدة الظاهر التي كان يصدرها الأستاذ محمد أبو شادي — كما قلنا — فأخذ يحبر المقالات الاجتماعية والإصلاحية، ومن يستعرض هذه المقالات يجدها تبحث في «سيء العادات ووجوب الانتباه إليها والذهول عنها، والخلاص منها»، وفي «استهتار العامة بمصر وما يجب على العلماء نحوهم» وفي «الفضائل فرائض»، وفي «حياة الأمة في ثروتها»، وفي «الأمة كالفرد في أطواره وبلوغ استقلاله»، وما إلى هذا من المباحث الاجتماعية. كما نجد له مقالات تربوية ولغوية رائعة كمقالته التي عنوانها «إحياء اللغة العربية الصحيحة

في نفوس العامة» ومقالته، التي كتبها إثر تولي الزعيم سعد زغلول نظارة المعارف العمومية، وعنوانها «ناظر المعارف الجديد سعد باشا زغلول وما ينتظره من القطر»، وقد عرض في هذه المقالة النفيسة إلى كثير من القضايا التربوية الإصلاحية الهامة فناقشه خير مناقشة، ومما يلاحظه المرء في المقالات الكثيرة التي كتبها في «الظاهر» هي بحوثه في نقد الكتب وتقريظها كبحثه عن «ابن حزم وكتابه في الأخلاق»، وبحثه عن كتاب أستاذنا العلَّامة المصلح بدر الدين النعساني الحلبي المسمى «بالتعليم والإرشاد»، وبحثه عن كتاب «أساس الشرائع الإنكليزية»، الذي ترجمه الأديب السيد نقولا حداد، وغيرها من الكتب المفيدة التي ظهرت في تلك الحقبة، وكان لظهورها أثر في المجتمع العربي.

ومما يلحظه المرء عن كتابات الشيخ المغربي في جريدة الظاهر في تلك الحقبة مقالته القيمة عن «الكلية المصرية» ومشروع إنشائها، ويقصد بالكلية نواة الجامعة التي كان الناس يتهامسون عن وجوب إنشائها، فقد كتب مقالين، بيَّن في الأول منهما ضرورة تكوين هذه الكلية، وبيَّن في المقال الثاني أنَّ ثمة أناسًا يعملون في الخفاء على تثبيط همة القائمين بهذا المشروع الجليل، ومما يلحق بهذه البحوث مقاله عن التعليم في «الأزهر وإصلاحه»، فقد أبان الحالة السيئة التي بلغها هذا الجامع العتيد، ودعا المصلحين إلى تقويم اعوجاج طريقة التعليم فيه بالأخذ بالأساليب الجديدة التي ستطبق في «الكلية المصرية».

وفي هذه السنة (١٩٠٦) انتقل الشيخ إلى أسرة الجريدة المصرية الكبرى، التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف باسم المؤيد، وفي هذه الجريدة أخذ المغربي يعالج بعض القضايا السياسية بعد أن رأيناه في «جريدة الظاهر» منصرفًا إلى معالجة القضايا الأدبية أو الاجتماعية أو اللغوية، فنراه يكتب مقالًا مطولًا بعنوان «العالم الإسلامي في الشهور الأخيرة»، حلل فيه أوضاع المسلمين السياسية، وما يجب عليهم أن يعملوه ليلحقوا بركب السياسة العالمي، ويتخلصوا من ربق الاستعمار الجاثم على صدورهم.

كما ينصرف إلى معالجة شئون الأزهر معالجة جذرية — كما يقولون — فيكتب المقالات الطويلة التي يحلل فيها أوضاع الزهر من إدارية وتدريسية ويسهب في ذلك ويطيل، ومن أروع هذه المقالات أربع، عناوينها «كلمة حق في الأزهر والأزهريين»، و«أزهري يخطب في الأزهريين»، و«كلمة إنصاف في الأزهر والأزهريين»، و«نموذج من إصلاح الأزهر»، وقد وفَّى الموضوع حقه وقتله درسًا وتمحيصًا، وكيف لا؟! وهو العالم المتحمس المخلص لدينه، الذي رأى فساد هذه المؤسسة التعليمية الكبرى وسوء طرائق

تعليمها وتقهقر رجالاتها، وكتبها عن متابعة سير ركب العلم الحديث، فساءه ذلك، وأخذ يتفنن في بحث طرائق الإصلاح، ومما يعجبني له في هذه الفترة مقالاته التربوية المفيدة التي نشرها في المؤيد عن «تربية أطفال المسلمين الدينية» وكيف يجب أن تكون، وما هي الكتب التي يجب أن يقرءوها، وما إلى ذلك من المباحث التربوية المفيدة، وله في هذا المبحث سلسلتان من المقالات التعليمية، أولاهما بعنوان «درس في الدين لابن ثمان سنين»، والثانية عنوانها «معاتب لا مشاكس مع ناشئة المدارس» وقد أظهر في تينكم السلسلتين أنه مربٍّ منصف يغار على الشبيبة الإسلامية، ويحرص على تقويم اعوجاجها، ويختار لها أحدث الطرق التهذيبية لتبلغ المستوى الرفيع الذي بلغته شبيبة الأمم المتمدنة من أوروبا وأميركا.

هذه صورة خاطفة عن مقالات شيخنا المغربي التي دبجتها يراعته سنة ١٩٠٦م في جريدتي الظاهر فالمؤيد. حتى إذا ما جاء عام ١٩٠٧م رأيناه ينصرف إلى تحبير المقالات السياسية والاجتماعية والأدبية في «المؤيد» إلى أن غدا من أركان الصحافة في مصر، ويطير صيته وتذيع شهرته في العالم الإسلامي والعربي، ويكاتبه الأحرار والمفكرون في العالمين، يطلبون إليه معالجة بعض القضايا العامة، فانبرى لها بقلمه، وكله إخلاص وصدق وعلم عميق وأسلوب رائع.

ومن أروع مقالاته السياسية مقالته «مصر والسياسة» التي حلل فيها الأوضاع السياسية في مصر، وبَيَّن أنَّ الزعامة في العالم العربي والإسلامي يجب أن تكون لمصر لما منحها الله من الثروة، ولما لها من الإمكانيات المادية والمعنوية، وقد وسع هذا البحث في مقال آخر عنوانه «مصر والأقطار العربية» ذكر فيه أنَّ مصر تتوسط الأقطار العربية في الشرق والغرب، وأنها لعبت في الماضي أدوارًا هامة في حياة هذه الأقطار فعليها في هذه الحقبة التي أشرقت فيها شمس النهضة العربية أن تعود إلى سيرتها الأولى، ولا ينسى أنَّ للأقليات المصرية من أقباط ومسيحيين مكانة هامة في تاريخ البلد قديمًا وحديثًا، فيكتب في ذلك مقالًا جد نفيس يمتدحهم فيه، ويبين الصلات الطيبة التي كانت تربطهم بإخوانهم المسلمين، وأنهم كانوا دومًا يدًا واحدة؛ ويتراءى له من خلال الحجب أنَّ الأجنبي المستعمر ربما حاول استغلال الناحية الدينية وإثارة العصبيات الطائفية، فكتب في ذلك مقالًا عميق التفكير بيَّن فيه أنَّ «التسامح من أعظم قواعد ديننا الحنيف»، وأنَّ المسلمين كانوا دومًا قدوة صالحة لشعوب الأرض في التسامح، وأنَّ الفتح العربي كان أفضل الفتوح. وأنَّ التاريخ العام لم يعرف فاتحًا أرحم من العرب. ويحس الشيخ

بالدسائس الأجنبية التي تحاك ضد مصر منذ ذلك الأمد ويرى الحبائل الاستعمارية المستترة بستار العلم تسعى إلى تشكيك المصريين في عروبتهم ووطنيتهم، وتعمل على زعزعة إيمان العامة منهم بجدارتهم بالاستقلال، وأنَّ مصر بلد مستعمر منذ القديم، فيكتب في ذلك مقالين من أروع ما كتب في سجل القومية والوطنية عنوانهما «مصر مستقلة بشهادة التاريخ»، عرض فيه إلى استقلال مصر منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث، وبيَّن فيه مواقف مصر الخالدة، وما كان لها من آثار على الإنسانية جمعاء.

هذه بعض مقالات شيخنا في الحقل السياسي الداخلي، أما مقالاته في حقل السياسة الخارجية التي تنتظم شئون العالم الإسلامي، فنجد بعضها في مقالاته عن «مراكش ما لها وما عليها»، التي بيَّن فيها سوء الحالة الداخلية التي كانت عليها مراكش قبيل الاحتلال الفرنسي، والتي دعا عقلاءها إلى حل الخصومات الداخلية بالحسنى، فإنَّ العدو يتربص بهم، وقد كان للمغربي باع طويل في محاربة الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا بصورة عامة، وبرهان ذلك ما كتبه جلالة السلطان سيدي محمد الخامس بن يوسف عنه في كلمته السامية التي وجهها إلى لجنة تأبين المغربي، وفيها جاء: «وما نسينا ولن ننسى موقف الشيخ عبد القادر من القضية المغربية في عهد الأزمات الأخيرة، إذ كان في الصف الأول من المناضلين عن حق المغرب العربي في الحرية والكرامة.»

ومن مقالاته في السياسة الخارجية مقاله المعنون «إسبارطة وأميركا» وقد بحث فيه بحثًا سياسيًّا رائعًا عن سياسة أميركا القاسية وبين أنَّ هذه طريقة غير حميدة، وأنَّ القوة هي التي سوَّغت قسوة أميركا.

ومن مقالاته السياسية الهامة مقالته عن بلاد جاوه وما إليها، فقد فند فيها مزاعم الاستعماريين الهولنديين، وحرض سكان تلك البلاد على الثورة على الظلم، والقيام في وجه المستعمر، الذي استطاع بتنظيم شئونه أن يقهر شعبًا عظيمًا عديدًا ذا إمكانيات وثروات هائلة كالشعب الأندنوسي.

هذا طرف من المقالات السياسية الهامة التي نجدها للشيخ في هذه الفترة.

أما مقالاته الإصلاحية فتتجلى في مقاله عن «المولد النبوي الشريف والاحتفال به»، ومقاله عن «الدين وأطفال المصريين»، وقد ناقش فيه الأستاذ إدريس بك راغب الذي استحسن أن لا يعلَّم الدين في المدارس المصرية؛ ليكون المصريون علمانيين، ويسود التفاهم بينهم وبين إخوانهم الأقباط، وقد عالج الشيخ هذه القضية معالجة حكيمة أثبت فيها أنَّ الدين الإسلامي بتسامحه وسمو مبادئه لا يحول دون الألفة؛ بل هو على العكس مدعاة لتطهير قلوب العامة والصغار من أدران التعصب البغيض.

ومن مقالاته الإصلاحية مقالته في «وصف حفلة مشهودة» نقد فيها جماعة من الصوفية ومشايخ الطرق الذين كانوا يقيمون حلقات الذكر، ويدعون الأجانب للتفرج عليهم. وقد رد عليه شيخ مشايخ الصوفية آنئذ وهو السيد البكري، ولكن الرأي العام أيَّد وجهة نظر المغربي الإصلاحية.

ومن مقالاته الإصلاحية الطريفة التي تبين شدة حرصه على الدفاع عن الإسلام الصحيح مقالته التي تخيل فيها حديثًا جرى بين نزيلين في مصر أحدهما مسلم يدعى محمودًا، وثانيهما مبشر يزعم أنَّ المصريين لا يصلحون للاستقلال، وقد ألقم محمود المبشر حجرًا وأبان له أنَّ التبشير ومن ورائه الاستعمار فاشلان في محاولاتهما الظالمة الرامية إلى الطعن في كفايات المصريين وغيرهم من الشعوب العربية والمسلمة.

وفي طليعة مقالاته الإصلاحية التي كان لها دوي هائل سلسلة مقالاته التي جعل عنوانها «حمامة الأزهر»، ومقالته «فتاة إنكليزية تصف الأزهر»، ومقالته «فتاة إنكليزية تصف المحمل» فقد ضمن هذه السلسلة أفكارًا جريئة في انتقاد الأزهر وشيوخه وطريقتهم القديمة العقيمة.

ولم يقتصر المغربي في مقالاته هذه على مباحث السياسة والاجتماع؛ بل كانت له جولات في ميدان الأدب، ظهرت في نقده لعشرات من الكتب الأدبية واللغوية التي طبعت في ذلك الوقت، كما تجلت في سلسلة أدبية طويلة كتبها بعنوان «أمالي أدب في لغة العرب»، وقد ضمنها كثيرًا من مقروءاته المنتقاة، وملاحظاته الأدبية.

هذه جولة مع شيخنا حول أعمدة «المؤيد» في مقالاته التي كتبها عام ١٩٠٧، وقد استمر على طريقته هذه طوال عام ١٩٠٨ حتى إذا ما أعلن الدستور العثماني وخلع السلطان عبد الحميد رجع إلى الشام، وابتدأ عهدًا جديدًا من حياته.

تعشق المغربي الصحافة، واتخذها سلوة ومتعة، وحرفة فانصقل أسلوبه، وأشرقت ديباجته، وذاع صيته في مصر وسائر أنحاء العالمين الإسلامي والعربي. ولما رجع إلى الشام في عام ١٩٠٩ استمر يراسل الصحف المصرية الكبيرة كالمؤيد، واللواء التي كان يصدرها الزعيم مصطفى كامل والشيخ عبد العزيز جاويش، وجريدة العلم، والمقطم، وغيرها من كبريات الصحف المصرية، كما شرع يكتب الفصول الإصلاحية في جرائد سورية كجريدة الاتحاد العثماني البيروتية، وجريدة طرابلس الشامية، وجريدة القبس الدمشقية، وجريدة المفيد البيروتية. ثم رأى أن يشمر عن ساعديه، ويحترف مهنة الصحافة، فأصدر في طرابلس الشام «جريدة البرهان» في غرة محرم ١٣٣٠هـ

(٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩١١م)، وقد ترجم في افتتاحية العدد الأول نفسه وما لاقاه من الويلات والمآسي في سبيل حرية فكره، وتعشقه لخدمة القضايا العامة، واستسهاله كل صعب في سبيل الإصلاح، ورفع مستوى أمته قال: «إذا مرت ببالي ذكرى أيام طفولتي، مر بجانبها ذكرى كراسة صغيرة جمع لي والدي فيها أبياتًا شعرية تتضمن ضوابط نحوية وفقهية، ومسائل شتى في مختلف العلوم اللغوية والدينية، ثم انتقلت من حجر الأسرة إلى حجر المدرسة، وكان مديرها أستاذًا من أكبر أساتذة العلم والدين في بلادنا السورية، وفي هذه المدرسة تنبهت إلى أنه ليس كل ما عزي إلى الدين كان صحيحًا؛ بل إنَّ هناك مسائل مدسوسة.

كانت هذه المدرسة ابتدائية، فلم يكن يدرس فيها شيء من العلوم العصرية العالية، وأذكر أنني رأيت مرة أحد معلمي المدرسة واقفًا في ساحتها وحوله فئة من التلامذة، وبيده مجلة المقتطف، فسمعته يشرح لهم الغرض من إنشاء هذه المجلة، ففهمت إذ ذاك أنه يوجد في الدنيا علوم أخرى وراء علوم الدين، وأنها تؤثر في ارتقاء البشر، ثم سافرت من بلدي إلى مدرسة أخرى أرقى من الأولى، وقد اتفق لي في هذه المدرسة أيضًا أنني رأيت الأستاذ ناظرها أمسك بيده عددًا من جريدة العروة الوثقى، وأخذ يخطب في تلامذته، ويذكر لهم شيئًا من سيرة مؤسسي الجريدة ومبلغهما من العلم، والغرض الذي أنشأ هذه الجريدة من أجله، ثم استطرد إلى وصف حالة العالم الإسلامي وما وصل إليه المسلمون من الجهل والوهن والتفرق؛ من حيث أدى هذا جميعه إلى طمع دول أوروبا بهم، ففطنت منذ سمعت هذا القول إلى ما لم أكن فطنت له من قبل وقلت في نفسي: إنه يجب على المسلمين إذن السعي في حفظ استقلالهم السياسي وإلا استعبدتهم الأمم، وجعلت من يومئذ أهتم بالمسائل السياسية وأتصفح ما ينشر من الكتب والرسائل فيها، ومن ثم تولد في نفسي الميل لخدمة أمتي من طريق فن الصحافة، هذا هو السر الذي دفع بالمغربي في عالم الصحافة، فإنه رأى أنها الوسيلة الوحيدة للإصلاح، فأخذ يحاول الكتابة، ثم أخذ يكتب وينشر، ثم عزم على امتهان هذه الحرفة، وقد بيَّن لنا سرًّا آخر دفعه إلى احتراف هذه الصناعة فقال: لما جاء دور العمل وأردت ممارسة الأشغال الدنيوية، كان سعيي بالطبع موجهًا نحو العمل الذي يلائم الوسط الذي أعيش فيه، فيممت دار السعادة بقصد الدخول في مكتب النواب، ثم حال بيني وبين المضي في الأمر حائل اضطرني للرجوع إلى وطني فأُبْتُ إليه، ولزمت أستاذي الأول وأخذت في دراسة العلوم، ثم عينت موظفًا في المحكمة الشرعية. هذا هو الظاهر من حالتي، ولكن هناك باطن يجول فيه سر

خفي، وتكمن تحت رماده شرارة لا تنطفي، وليست هذه الشرارة سوى حركة النفس في تدبر أحوالنا الاجتماعية والاهتمام بشئوننا السياسية، وترديد الشكوى من موقفنا المنحط عن مواقف بقية الأمم، وقد أتاح الله لي صديقًا حميمًا (هو السيد محمد رشيد رضا)، نفسه في الميل نفسي وهمه في الحياة همي، فكانت صداقته عاملًا قويًّا في تكوين ميلي الصحافي ونزوعي نحو الاشتغال في الشئون العامة، وهو اليوم من أكبر رجال الصحافة وأشهر دعاة الإصلاح، ولم يكن منزعي وفكري ورأيي الاجتماعي ليخفى على من حولي من أهلي وأناسي، فكانوا ينذرونني بيوم شديد من أيام السلطان عبد الحميد، ولم أنس متصرف طرابلس وقد هالته رزم الأوراق وأضابير الرسائل التي ألقيت بين يديه، فجعل ينقِّر فيها ويشكو التعب من قراءتها، ثم حانت منه التفاتة، فرأى دفترًا صغيرًا لخصت فيه نتفًا من شئون ممالك أوروبا، فجعل يقلب يديه ويزوي حاجبيه ويقول: موظف في المحكمة الشرعية ما شأنه وشأن إيطاليا وفرنسا وروسيا. هبني نسيت هذا كله، فهل تراني أنسى والي بيروت، وقد تناول من مجموعة كتبي مجموعة أعداد العروة الوثقى، فطفق يقلب صفحاتها، وينظر في تاريخ كتابتها، ثم هز رأسه وجمجم كأنه يقول: شاب في البضع عشرة سنة من سني حياته يكتب بقلمه جميع أعداد العروة الوثقى حتى التلغرافيات والوفيات، ويعلق عليها هوامش تفسر كلماتها ... إلى السجن إلى السجن ...»

ويمكث شيخنا المغربي مسجونًا في دائرة الشرطة ببيروت نحوًا من سنة ثم حين يرى نفسه طليقًا يعزم على الرحيل إلى مصر، ويصل إليها هاربًا لاجئًا، ثم ينضم إلى أسرة الجريدة الكبرى «المؤيد»، فيفرح بذلك فرحًا عظيمًا يبينه لنا قوله: «ثم بعد حين من الزمان رأيتني في إدارة جريدة المؤيد وحولي طائفة من كبار الكتَّاب المبرزين في حلبة الإنشاء، والعاكفين على خدمة الصحافة، وقد قضيت ثمة سنتين ونيفًا حتى تأذن الله بانتشال الوطن من مخالب المحن فأسرعت الكرة إليه ونزلت بآمالي عليه»، وما أن حلَّ أرض الوطن حتى سكنت نفسه بعد اضطرابها وعزم على خوض معركة الإصلاح فأصدر جريدة «البرهان». ولقد ظلت البرهان منارًا لأولي الفكر، ومألفًا للكتاب من مستنيري الشيوخ والشباب، على نمط زميلتها «المقتبس» التي كان يصدرها المرحوم الأستاذ محمد كرد علي في دمشق إلى أن أعلنت الحرب العالمية الأولى، فاضطر إلى وقفها فتوقفت عن الصدور في ٢٠ آب (أغسطس) سنة ١٩١٤.

وفي خزانة المغربي مجلد ضخم ضم أعداد «البرهان» منذ يوم صدورها إلى يوم توقفها، وقد كنت زرته مرات فحدثني عن هذه المجموعة وأراني إياها وأعلمني بشدة

حرصه عليها، فتصفحتها وقرأت أكثر مقالاتها وبحوثها التي تدل على سعة أفقه وشدة حرصه على خدمة أُمَّته، وبعده عن الإسفاف والقضايا الخاصة، أو المنافع الشخصية، أو المهاترات، وقد ذكر في العدد الأول منها أنَّ «الصحافة ليست من صنف التجارة التي يتمتع صاحبها ببيع الحبر والورق أو ابتياعهما، بل هي فئة من أصحاب الأفكار المتنورة تجمع على الدوام بين مصالحها الذاتية والمصالح المشتركة مع الوطن وأبنائه، وتبذل جهدها بترويج الأمور التي تراها نافعة للمملكة وبيان الوسائل الفعالة لإزالة كل ما تراه مضرًّا حسب قناعتها الوجدانية، وإذا كانت نتائج الخدمات الحسنة التي تؤديها إلى الوطن الجريدة العارفة بوظيفتها حق المعرفة والقادرة على القيام بها أعظم ما يتصور، فكذلك النتائج المضرة التي تنشأ عنها. والمحافظة على شرف المطبوعات تكون بمقدار درجة ترفع أصحابها عن اتخاذها آلة للأغراض الشخصية، على أنه متى كانت الغاية المشتركة بيننا وبين المطبوعات سلامة الوطن وسعادته، فإن المساعي المختلفة تتحد حالًا وانتقادات الجرائد وملاحظتها المنبعثة عن عواطف وطنية محضة وضمن دائرة الأخلاق والآداب هي تجاه الآراء العمومية، وبنوع خاص تجاهنا نحن معشر المأمورين من قبيل الاستشارة التي تنبه أفكارنا، وتسهل علينا التوفيق في وظائفنا.»

هذا ولا ينسى المغربي دومًا نزعته الإسلامية العثمانية فقد كتب وأسهب في وجوب «تسكين المملكة وتوطيد دعائم الائتلاف والصفاء بين جميع العناصر العثمانية بلا استثناء، وبعبارة أخرى بين جميع أبناء هذا الوطن العزيز المنقسمين إلى جماعات تحت أسماء مختلفة، والعمل على تقوية الروابط الوطنية الجامعة بينهم»، هذه هي عقيدة المغربي الوطنية: إسلامية أولًا، وعثمانية ثانيًا، وقد ظل مؤمنًا بهذه الفكرة حتى آخر عمره، أما القومية الضيقة فإنه لم يكن من أنصارها؛ بل كان ممن عملوا على محاربتها، وظل يسعى جاهدًا لإصلاح حالة الإمبراطورية العثمانية، وعلى هذا دأب طوال إقامته في مصر في العصر الحميدي، ثم بعد أن رجع إلى طرابلس الشام وأصدر البرهان سار على تلك الخطة، فحارب كل دعاة التفرقة الإسلامية — العثمانية، وقد رأى رجال الدولة العثمانية منه ذلك، فوثقوا بصدقه وإخلاصه في دعوته، فطلبوا إليه أن يشرف هو وجماعة من رجال الفكر العرب المؤمنين بهذه الفكرة على إنشاء معهدين في قلب العالم العربي لإحياء فكرة الإسلام ومحاربة الأقليميات وتأييد الفكرة الإسلامية — العثمانية، وكان أول هذين المعهدين في المدينة المنورة، وثانيهما في بيت المقدس باسم كلية صلاح الدين. فقام بعمله هذا بطلب من قائد الفيلق الرابع أحمد جمال باشا أحسن قيام هو

وزملاؤه الثلاثة الشيخ عبد العزيز جاويش، والأمير شكيب أرسلان والشيخ بدر الدين النعساني.[٢]

ولما أمرت الدولة العثمانية أحمد جمال باشا ناظر البحرية العثمانية، وقائد الجيش الرابع العثماني، والقائد الأعلى لسورية، وبلاد العرب في سنة ١٩١٦م بإصدار جريدة «الشرق» للدعاية للدولة العثمانية في الأقطار الإسلامية، جمع في دمشق نفرًا من حملة الأقلام العربية لإصدار تلك الجريدة، وفي طليعتهم السادة:

صاحب امتيازها: خليل أفندي الأيوبي الأنصاري.

والمدير المسئول: محمد تاج الدين أفندي الحسني.

ورئيس الهيئة التحريرية: الأمير شكيب بك أرسلان مبعوث حوران.

ومدير الهيئة التحريرية: الشيخ عبد القادر أفندي المغربي.

ومدير الإدارة: علي حكمت ناهيد بك.

وجُعل لها محررون ومترجمون أخصائيون ومستخدمون، كما جعل لها وكلاء ومكاتبون في دار الخلافة والعواصم الكبرى … فصدرت يوم الخميس في ٢٥ جمادى الثانية ١٣٣٤هـ/٢٧ نيسان ١٩١٦م.

أما خطتها فقد ذكرت في المقال الافتتاحي وإليكم خلاصته:

(١) إيجاد وحدة كافية بين الأمم والشعوب الإسلامية سواءً أكانوا تابعين للحكومة العثمانية أو كانوا تحت إدارة أجنبية.

(٢) الحث على رعاية الطوائف العثمانية الأخرى غير المسلمة ممن جمعتهم والمسلمين الرابطة الشرقية والتابعية العثمانية وتأمين راحتهم.

(٣) الدفاع عن حوض دولتنا العثمانية ومقام الخلافة الإسلامية، وبيان ما لها من المآثر والمواقف في خدمة الإسلام والمسلمين.

(٤) إزالة سوء التفاهم الذي يحاول الأعداء دسه بين العناصر العثمانية؛ لأجل أن يستفيدوا من ورائه مطامع ضارة باستقلال المملكة.

(٥) ينشر في الأحايين مقالات خاصة بسورية وماضيها، وما هي الوسائل العاملة على تقدمها من الوجهة الاقتصادية وترقيها.

(٦) وينشر أيضًا أمالي أدبية ممتعة في ترقية اللغة العربية وتقوية ملكتها في النفوس وطبع القرائح على ما امتازت به من التراكيب الفصيحة والأساليب العربية.

وقد اشتمل العدد الأول على مقالة افتتاحية طويلة بقلم الأمير شكيب أرسلان، بيَّن فيها خطة الجريدة، وأتى فيها على ذكر السلطان محمد الخامس «رشاد» وقال عن جمال باشا: «وحسبكه أنَّ في غرسها يد القائد الكبير والوزير الشهير الذي حقق الآمال بالأعمال وكفانا عن التعريف بقولنا «الجمال»»، وتلى ذلك كلمة للشيخ خليل الأيوبي في فضائل الجهاد، ويلي ذلك «درس الجمعة»، وهو ملخص مما كان يلقيه مسند الشام وخاتمة محدثيه الأستاذ الشيخ بدر الدين الحسني في الجامع الأموي بقلم المغربي وموضوعاته «الصبر، الفتن، الجهاد، النهي عن المنكر» نوجزه فيما يلي:

> افتتح أحد القراء الدرس بتلاوة آيات من سورة القصص التي منها هذه الآية: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾، ثم بدأ الأستاذ، فحمد الله وأثنى عليه وقال: قال المؤلف (ويعني به البخاري): سُئِل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ فقال: إيمان بالله وجهاد في سبيله. فذكر الأستاذ معنى الإيمان، وهل هو التصديق فقط، أو التصديق والعمل، وشرح مذهب المحدثين والمعتزلة وأهل السنة الذين يقولون: إنَّ الإيمان هو التصديق فقط، أما الأعمال — وإن أطلق عليها اسم الإيمان — فهي من المكملات، ثم انتقل الأستاذ إلى مسألة زيادة الإيمان ونقصه وذكر أقوال الأصوليين في ذلك ... وهكذا انتهى القسم الأول من تلخيص كلام الأستاذ الحسني، فلما انتقل إلى القسم الثاني منه ذكر فضائل الصبر، وقال: إنَّ أنواعه ثلاثة: (١) صبر المرء على المصائب فيترك الجزع. (٢) صبره على الطاعات فيحسن أداءها. (٣) صبره على الحرمات فيكف نفسه عنها، ثم قال: وهذا الأخير أفضل أنواع الصبر، وبيَّن السبب في تفضيل هذا النوع على أخويه، وأفاض في ذكر الأحاديث والآثار الواردة في فضل الصبر على الأمراض البدنية وعلى فقد الأولاد، وأنَّ العبد تكون له الدرجة والمنزلة عند الله، فلا يبلغها إلا بالصبر على المصائب في ماله أو ولده أو نفسه، وفي حديث ابن مسعود — رضي الله عنه — «حمَّى يومين كفارة ذنوب سنتين»، وبين الأستاذ الحكمة في تعيين السنتين فقال: لأن أثر ضعف الحمى في الجسم يبقى سنتين، وذكر مسلم في صحيحه عن أبي هريرة — رضي الله عنه — جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وهي تحمل ابنًا لها فقالت: يا رسول الله! دفنت ثلاثة أولاد، وإني أخاف على ابني هذا، فقال لها: دفنت ثلاثة أولاد؟

قالت: نعم.

فقال: لقد احتظرت بحِظار شديد من النار.

أقول: الحظار بالكسر ويفتح كل شيء حجز بين شيئين، واحتظر به احتمى؛ أي لقد تحصنت بحصن شديد من النار.

قال الأستاذ: وعند الإمام أحمد في مسنده من حديث معاذ بن جبل — رضي الله عنه — ما من مسلمين — يعني أبوين — يموت لهما ثلاثة من الأولاد إلا أدخلهما الله الجنة برحمته، قالوا: يا رسول الله! واثنان، قال: واثنان قالوا: وواحد، قال: وواحد، والذي نفسي بيده، إنَّ السقط ليجُرُّ أمَّه بسرره إلى الجنة.

أقول: السقط مثلث السين الولد يسقط من بطن أمه لغير تمام، والسرر بفتحتين ما تقطعه القابلة من سرة المولود، وهذا كناية عن أنَّ السقط يكون سببًا في دخول أمه الجنَّة.

وهكذا ينهي المغربي تلخيص القسم الثاني من كلام الأستاذ الحسني.

ثم يذكر في عدد يوم السبت ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٣٣٤هـ/٢٩ نيسان ١٩١٦م بقية كلام الشيخ وشرح الغامض منه ويكتب في الخاتمة ما يلي: حين بلغت هذا الموضع شعرت نفسي بشيء من الملل وخدر الأصابع فألقيت القلم من يدي وكففت عن الكتابة، أما الأستاذ فبقي يواصل الكلام من دون تلعثم ولا إحجام، ومدة درسه عادةً ثلاث ساعات يحدر الأستاذ فيها المسائل حدرًا لا يتخلله سكوت ولا يقاطعه من الحاضرين سؤال، وكل المسائل التي يلقيها تكون تعليقًا على «الحديث» الذي كان قد افتتح به الدرس، وهو يجعل من تلك المسائل تناسبًا دقيق اللحام، ويفرغها بأسلوب حسن السبك والنظام، ولا يذكر حديثًا ما لم يرو سنده ويعين مأخذه فمستمع درسه يعجب من ذلك الاستحضار، كما يعجب من فصاحة ألفاظه وصحة تراكيبه حتى لو أمكن كتابة ما يمليه الأستاذ في درس واحد وطبع ذلك ونشر بين الناس كان لهم منه كتاب يبلغ حجمه عشرة أجزاء من القرآن، وقد تضمن أبحاثًا جمَّة في أنواع العلوم الإسلامية.

ونحن في المسائل التي لخصناها من درس الأستاذ لقراء «الشرق»، لم نلخص إلا قليلًا من كثير ووشلًا من غدير، وما يجده القارئ فيه من خطل أو خطاء أو قول هراء فهو منا وتبعته راجعة إلينا، والأستاذ بريء منه وعيبه طاهر عنه ...»

وقد استمر المغربي يحرر في جريدة «الشرق» الشرق المباحث الأدبية واللغوية والإصلاحية، وبعض المقالات السياسية، طوال فترة الحرب العالمية الأولى، فلما وضعت

الحرب أوزارها، ودخلت الجيوش الأجنبية إلى دمشق انزوى في بيته منصرفًا إلى التأليف، وكتابة مقالات العلم واللغة والأدب.

ثم عُهد إليه، حين أسس الملك فيصل الأول الجامعة السورية بدمشق، أن يصحح لغة كثير من التآليف العلمية فيها، ولا سيما في كتب كليتي الطب والحقوق، فأصلح لغتها، وأدخل فيها ألفاظًا جديدة، ودرَّس اللغة العربية وفقهها للطلاب.

وكان إلى جانب تدريسه، وتصحيحه للكتب، يزود مجمعي دمشق والقاهرة، ثم مجمع بغداد، بالمقالات والبحوث والتعليقات، وقد أهمل الكتابة في الصحف اليومية — هذه الفترة من عمره — إهمالًا تامًّا لاعتقاده بأنه قد أدى قسطه نحو أمته في هذا الحقل.

هوامش

(١) ارجع إلى هذا المقال في آخر هذه المحاضرات.

(٢) فيما يلي معلومات موجزة عن الكلية الصلاحية نقلتها من خط المغربي في دفتر عنوانه «ترجمة تعليمات كلية صلاح الدين الأيوبي الإسلامية» سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٥م. وقد جاء في صلب المادة الأولى من تلك التعليمات ما يلي: تأسست في القدس الشريف كلية إسلامية باسم كلية صلاح الدين الأيوبي؛ وذلك إحياءً لذكرى مدرسته التي كان أنشأها في حياته، وقد ربطت هذه الكلية مباشرةً بمقام المشيخة الإسلامية الجليلة وبنظارة الأوقاف والغرض منها تدريس العلوم الشرعية والحقوقية والفنون المختلفة والألسنة المتنوعة وتخريج رجال أخصائيين في هذه العلوم للدفاع عن التعاليم الدينية، ويصلحون للوظائف الشرعية والعلمية، وقد عهد بإدارة شئونها إلى مدير ومعاون مدير وناظر درس وغيرهم من المأمورين، كما عهد بأمر التدريسات إلى أساتذة من أرباب الكفاية والاختصاص.

المادة «٢» مدة التحصيل في الكلية عشر سنوات سبع منها تالٍ وثلاث عالٍ، ولسان التعليم فيها اللغة العربية، وتقبل كل سنة مائة طالب في الصف الأول موزعة على الصورة الآتية:

- عشرة من لواء القدس.
- خمسون من سائر الولايات والألوية العثمانية.
- أربعون من أقطار العالم الإسلامي.

وذكرت في الفصل الرابع المادة «٣٥» شرائط قبول الطلاب فقالت: يوضح هنا ما جاء في المادة الثانية بخصوص مقدار ما يقبل من الطلاب من أقطار العالم الإسلامي، فينتخب من لواء القدس وملحقاته، أما الطلاب الأربعون الذين يؤخذون من أطراف العالم الإسلامي فتوزيعهم بحسب ما يلي:

- ٤ من مصر.
- ٢ من السودان والحبش.
- ٢ من طرابلس الغرب وبنغازي.
- ١ من تونس والجزائر وفاس وجنوبي أفريقيا.
- ٣ من جاوة وفيليبين.
- ٣ من الصين وكاشغر.
- ٥ من الهند.
- ٢ من الأفغان.
- ١ من بلوخستان.
- ٢ من إيران.
- ٦ من تركستان (بخارى، خيوا، طشقند، سمرقند وما يلي ذلك).
- ٦ من قفقاسيا واسترخان وقازان والقريم وبولونيا.

ثم يلي سبعة فصول وتسع وتسعون مادة بتاريخ (٣ جمادى الثانية سنة ١٣٣٣).

المغربي الفقيه

رأينا أنَّ أسرة المغربي أسرة قضاء وفتيا منذ عهد بعيد، فقد تقلد جده الأعلى يوسف درغوث «طورغود»، وكان من كبار علماء الحنفية في تونس، ومن أبناء طورغود باشا أمير البحر العثماني ودفين طرابلس الغرب، منصب مفتي الحنفية في تونس وتسلسل ذلك المنصب السامي في أعقابه من بعده يتوارثونه ولدًا عن والد. فقد قتل المفتي الشيخ يوسف في ثورة عسكرية سنة ١٠٨٨هـ وسمي ولده عبد الكبير مفتيًا للحنفية بعده. ثم عزل مرة وأعيد بعدها إلى أن مات فخلفه ولده يوسف، وظل في الإفتاء طوال حياته، ثم خلفه ابنه محمد.

ولما حصل الانقلاب الكبير في الدولة التونسية، وانتقل المُلْكُ من أبناء الباي علي بن محمد إلى أبناء الباي حسين بن علي قبل سنة ١١٧٠هـ عزل محمد درغوث من منصب الإفتاء وسمي ابن بيرم مفتيًا للحنفية، وهكذا انتقل هذا المنصب الإسلامي السامي من الأسرة الدرغوثية إلى الأسرة البيرمية بعد أن تقلب أبناؤها فيه أكثر من قرن، ورأى رجالات الأسرة الدرغوثية أنَّ العهد الجديد قد ثقل عليهم فاضطروا إلى الهجرة إلى الشرق، وكان الشيخ محمد درغوث أحد أفراد الأسرة زار الشرق، ومرَّ بمدينة طرابلس الشام، فاتخذها سكنًا، وعرف أهلها فضله، فأحبوه والتفوا حوله يفيدون من عمله وبركاته، وأصبح لقب الأسرة «المغربي» بعد أن كان «درغوث» واستوطن بعض أفراد الأسرة الدرغوثية، محمد أحفاد الشيخ محمد الكبير، مصر واتخذوا دمياط مقرًّا لهم ونبغ فيهم الشيخ عبد القادر مفتي دمياط حوالي سنة ١١٥٠هـ. وظل الشيخ محمد في طرابلس حتى توفاه الله، وسار أبناؤه وأحفاده على سيرته، وتقلد حفيده عبد الرحمن الجد الأعلى للمغربي منصب الإفتاء في طرابلس الشام واللاذقية خمسًا وأربعين سنة، وقد ترجمه المرادي في سلك الدرر وقال إنَّ وفاته كانت سنة ١٢١١هـ، وإنه كان من رجال الدين الورعين، كما تولى

حفيده الشيخ أبو الهدى عبد القادر قضاء طرابلس، وقد كان تلقي العلم في الأزهر عن الدسوقي والطحطاوي والمنوفي والشنواني، وتلقى الطريقة الخلوتية عن الشيخ محمد بن عبد الكريم السقاط المتوفى ١٢٠٩هـ، وبقي في قضاء طرابلس حتى دخول المصريين إليها، وتسلسلت النزعة العلمية الإسلامية في أبناء الشيخ عبد الرحمن جد الفقيد الأعلى وكان الشيخ مصطفى والد الفقيد من رجال الدين الأفاضل في طرابلس، وقد حدثتكم بطرف عن حياته وأثاره ووظائفه الدينية التي تقلدها.

أما ابنه عبد القادر المغربي فقد نشأ نشأة دينية — كما أسلفنا — وأراد والده أن يجعله فقيهًا محافظًا يقف عند النصوص الواردة في كتب الفقه الحنفي ويُسلِّم بها ولا يناقشها؛ لأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، ولأن ما بلغت إليه نصوص فقهائها المجتهدين هو الأوج. وأنَّ نصوصهم لا مجال للاجتهاد عندها، وقد قدمنا أقوال المغربي في ذلك، ونريد أن نبين تحطيم المغربي لتلك السدود بعد أن اتصل بالمصلح الأفغاني والمفتي محمد عبده، فإنه صار يقول: «يحاول قوم من الجامدين أن يأخذوا أولئك المتنورين بالتقليد الأعمى، وأن يحملوهم على الإذعان والتصديق بمجرد نقل النصوص وسرد أقوال المتفقهين، ولكن محاولة هذا منهم هي مقاومة الطبيعة والنجاح في أمر مقاومتها أمر مستحيل.

عقل حر في نفسه، حر في تربيته، حر في حكومته، حر في عصره، حر في الوسط الذي يعيش فيه؛ تكلفه أن يقلد غيره تقليدًا أعمى؟ اللهم إنَّ هذا تكليف ما لا يطاق.»[١]

فهو، كما تسمعون، يرى أنه من الواجب على الفرد مناقشة أقوال المتفقهين وعدم التسليم بنصوصهم وتقليدهم تقليد الجاهل دون دراسة حججهم وأدلتهم. ويرى أنَّ أولى خطى الإصلاح الديني هي في التربية والتعليم، فإذا ما رُبي الأطفال المسلمون تربية إسلامية صحيحة فاز المسلمون وسلكوا الجادة المستقيمة التي تؤدي إلى رقيِّهم وتقدمهم، وقد أكثر المغربي من الكتابة في هذا الأمر منذ فجر حياته إلى أن توفاه الله، وضمَّن قسمًا من آرائه في الإصلاح والفقه الإسلامي «كتاب البينات»، وإليكم ما قاله في المقال الأول الذي افتتح به الجزء الأول من هذا الكتاب بعنوان «الإصلاح الإسلامي»[٢] وقد كان كتبه سنة ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ:

> ... إن لم يرد رجال الدين العناية بأمر الإصلاح الإسلامي فلا يحسبوا أنهم بذلك يعوقون حركة الانقلاب العام في أمم الإسلام، أو يعوقون نهوض هذه الأمم وعروجها في معارج الحضارة والعمران «كلا»، إذ أنَّ القوة المادية

أصبحت اليوم بيد رجال السياسة، وفي طاقة هؤلاء أن يذللوا بها كل صعوبة تعترض سيرهم مهما كان نوعها.

ولكن رجال الدين يرتابون في أنَّ الإسلام محتاج إلى إصلاح، وكثيرون منهم يرون أنَ الكلام في إصلاحه لغو باطل؛ إذ أنَّ الدين الإسلامي لم يك بالفاسد في يوم من الأيام حتى نفكر في إصلاحه، أو نبحث عن طريقة لأجل إصلاحه …

ثم نسلك في الكلام على وجوب الإصلاح من طريق آخر فنقول: إنَّ المسلمين بتركهم العمل بدينهم والسعي في إصلاحه أصبحوا كأنهم غير مسلمين، وإذا سمع الشيوخ منا هذا القول استبشعوه وردوه علينا أقبح رد. ولم يطيقوا أن يسمعوا القول بأن المسلمين اليوم غيرُ مسلمين.

حقًّا الأمر جلل، وإنَّ التصريح به بشع تأبى النفس سماعه، دع عنك قبوله، ولكننا نرانا مضطرين إلى الجهر به، وإقناع معارضينا فيه، لنحملهم بذلك على النظر والتفكير، ونبعث في نفوسهم الشعور بالحاجة إلى الإصلاح ولزوم السعي فيه …

ومحض القول إنَّ أي نوع من الإصلاح لا يتم إلا بسعي الذين يعينهم أمره، وإصلاحنا الإسلامي إنما يعني علماء الدين فهم المكلفون به، المخاطبون شرعًا بالعمل على تحصيله، وليس العمل منهم سوى الدعوة إليه بخطبهم وكتاباتهم وتأليفهم، حتى إذا اقتنع بذلك جمهور الأمة ومعظم أفرادها هبوا هبة واحدة، فاكتتبوا لمدارس يشيدونها ونشرات يوزعونها ومؤتمرات يعقدونها عن كل ما فيه تحصيل أمر هذا الإصلاح وتحقيق أمره. وعماد الإصلاح بوجه عام، أو أصل الأصول في الإصلاح، إنما هو التربية والتعليم الإسلاميان، أو يقال هو «المدرسة الإسلامية» هذا هو أصل الأصول، أما بقية الأصول والأركان فتأتي على ذكرها هنا موجزة بصفة فهرست يجمعها.[٣]

هذه هي بإيجاز نظرة المغربي في الإصلاح الإسلامي، وتلك هي آراؤه في رجال الدين ومسلمي عصره، وأما ما يجب على الفقيه — في رأيه — أن يعمله، فنترك الحديث عنه منفصلًا إلى محاضرتنا عن «المغربي المصلح». ولا ريب في أنَّ هذه الآراء الجريئة التي اندفع المغربي الشاب إلى إعلانها، قد ألَّبت عليه جمهور العامة المتعصبين لرجال الدين، فاتهموه بالإلحاد والزندقة والمروق، كما اتهموا من قبل أشياخه جمالًا ومحمدًا، وقد

استمرت هذه الحملة العنيفة على المغربي طوال حياته، وإن كانت في سنيه الأولى أعنف وأشد منها في سنواته الأخيرة، حينما انصرف إلى الدراسات اللغوية والمباحث الأدبية.

وقد كانت أعنف فترة في حياته خلال سنتي ١٩٠٦–١٩١١م، فقد قام فيما بين هذين العهدين بحملة على منكري تعليم المرأة، ودعا إلى سفورها الشرعي وتعليمها، وله في ذلك محاضرات ورسائل ومقالات — ولخصومه من رجال الدين نقود عنيفة وحملات قاسية عليه. فقد نشر أولى مقالاته في هذا الموضوع الخطير آنئذ في جريدة الظاهر المصرية — التي كان يصدرها المحامي الأستاذ محمد بك أبو شادي والد الدكتور زكي أبو شادي — بتاريخ ١١ أكتوبر (تشرين الأول سنة ١٩٠٦م) (١٣٢٤هـ) بتوقيع «م. ع.» قال فيها:

> كنت بالأمس أتجول في شوارع القاهرة وأدخل حوانيتها ومخازنها وأنتاب منتزهاتها وحدائقها، فأجد من تبرج النساء وتبذلهن ومحادثتهن للرجال وعدم التزامهن حدود الشرع ما كان يذكرني بما كتبه العالم الفاضل قاسم بك أمين في كتابه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، من أنَّ هذا الحجاب الذي عليه عامة نساء المسلمين ليس بالحجاب الشرعي، فلا ينبغي الاحتفاظ به، وإنما علينا الرجوع إلى ما قرره الشرع في ذلك لكنه — حفظه الله[٤] — كان يصور الحجاب الشرعي بما عليه الآن نساء أوروبا وأميركا، وقد وصف من أحوالهن ومخالطتهن للرجال ما يشعر باستحسانه له وتمنِّيه لنسائنا مثله حتى هاج عليه الشيوخ والمتعصبون، مع أنَّ الحجاب الشرعي هو واسطة بين الحالتين، ليس فيه التبذل والتعرض لمثارات الفجور وما هي عليه الحالة في نساء الغرب، ولا يحول بين المرأة وبين رُقِيِّها وإعدادها لأن تكون زوجًا وأمًّا ومدبرة منزل، كما هي عليه حالة نسائنا لهذا العهد. ومهما يكن فإن المؤلف «الأمين» إنما يرمي إلى نشل المرأة المسلمة من هوة الجهل التي سقطت فيها منذ قرون … كنت أفكر في هذا الموضوع. وأذكر في نفسي ما كان كتبه قاسم بك وفصله تفصيلًا شافيًا، وإذا بي اقرأ من جريدة الظاهر نقلًا عن جريدة «الإسكندرية» مقالًا طويلًا للمومأ إليه (أي قاسم أمين) يقول فيه: إنه عدل عن رأيه في مسألة الحجاب وسحب كلامه في دعوة الأمة إلى تحرير المرأة، فرجعت وخفت أن يكون أدرك ذلك الفاضل شيء من الخور وضعف العزيمة.

فأخذ يعتذر للشيوخ والمتعصبين، ويتنصل مما كانوا اتهموه به من قبل، وقلت إن كان شأنه كذلك فيكون من جملة مصاب الأمة برجالها وقادتها الذين نرجو الخير من قبلهم … لكن لم ألبث في ثاني يوم حتى قرأت ما كتبه حضرته في إنكار ذلك المقال والبراءة منه فسررت، ورأيت كل ذلك فرصة حسنة أغتنمها في رجاء الفاضل قاسم بك أن يتحفنا بكتاب في المرأة يكون ثالث القمرين وشاهدًا لصاحبه بالحسنيين.[٥]

واستمر المغربي يدعو إلى تحرير المرأة، ويكتب البحوث العديدة في ذلك، وكان من أشهر تلك المقالات كلمة كان لها دوي هائل قال فيها:

ألزم الدين الإسلامي المرأة بالعلم وفرض طلبه وتحصيله عليها، كما أعطاها من جهة ثانية حق التملك والاستقلال وحرية التصرف فيما تملك، فإذا شاءت بيعه أو هبته أو وقفه، أو أي نوع من أنواع التصرف فيه جاز لها ذلك من دون أن يكون لزوجها أو أبيها أو أي كان حق في معارضتها … يقولون: إنَّ الدين الإسلامي كما شرع ذلك ألزم المرأة بالحجاب والهدوء في المنزل وعدم الخروج منه إلا لزيارة والديها، ثم لزيارة القبر وعدم مخالطة أحد والحديث مع أحد، وإذا اضطرت إلى الكلام مع أجنبي فتغير صوتها الرخيم بأن تضع أصابعها في حلقها وتخور كما يخور الثور.

المرأة التي لا تعرف في حياتها سوى محارمها، ولا تخرج من بيتها إلا إلى قبرها تبقى بالضرورة جاهلة، فلا تقدر أن تتعلم ما يلزمها علمه بالوجه العام، ولا ما يلزمها أن تتعلمه لصيانة أملاكها والذود عن حقوقها من وجه أخص. حجابها المصطلح عليه يؤدي بها إلى الجهالة وإلى التجرد من حق التملك وحرية التصرف فيما تملكه …

هذا تناقض ظاهر، وتضارب بين أصول الإسلام، وقواعده الكبرى الاجتماعية لا يمكن معه أن تنهض أمة ويرتقي شعب … لا نعلم كيف نوفق بين الأمرين ونطبق هذين الأصلين، هل نقول: إنَّ الأصل في الإسلام هو إعطاء الحرية والاستقلال للمرأة، وإنها مكلفة بتحصيل العلم عملًا … أو نقول بالعكس: إنَّ الحجاب وقصر المرأة في دائرة ضيقة من حياتها المعاشية والعلمية والأدبية هو الأصل الشرعي والقاعدة الأساسية، وإنَّ علمها وتعليمها

> وحريتها واستقلالها وتصرفها كل ذلك دخيل في تعليم الدين ومدسوس على الشريعة ...[٦]

إلى أن يقول مؤيدًا رأيه في سفور المرأة وحريتها:

> وهذا التضارب أمر مستحيل يجب علينا أن ننفيه بكل قوتنا، وإذا تعسر علينا الجمع بين الأصلين واضطررنا إلى النظر في أمرهما والبحث عن سرهما. ولا أرى مجالًا للريب أو الشك في مشروعية الأصل الأولي القائل بأن المرأة مخلوق بشري، وإنها إنسان ذو قوى ومواهب مثل الرجل، وإنَّ عليها أن تتعلم ولها الحق أن تكون حرة مستقلة مطلقة التصرف. ممتعة بسائر حقوقها، ولا ريب في هذا، وإنما الريب في الأصل الثاني، وهو أن تكون محجبة بهذا النوع من الحجاب المعروف.[٧]

وما أن نشر المغربي مقاله هذا حتى ثارت عليه الحملات في مصر والشام، وأخذت الجرائد تهاجمه وتتهمه بالمروق والكفر فانبرى لكتابها يصاولهم، وكتبت في ذلك عدة مقالات كان من أجرئها مقالته التي نشرها في جريدة العلم المصري بتاريخ ١٨ يناير (كانون الثاني ١٩١١) ونقلتها عنها مجلة الهداية للشيخ عبد العزيز جاويش في تلك السنة، وتناقلتها جريدة «المفيد»، البيروتية و«المقتبس» الدمشقية، وفيها «شرع الإسلام في جملة ما شرع من الأحكام أدبًا خاصًّا بالمرأة متعلقًا بموقفها إزاء الرجل الأجنبي عنها، وقد تنوع هذا الأدب وتطور وسمى حجابًا. والغرض منه صيانة كرامة النساء وتوفير حرمة الأعراض من حيث يؤدي ذلك إلى دفع الشرور ... ولكن ما هو حدُّ الحجاب وكيفيته وشكله؟ لم يحدد الإسلام له صورة خاصة ولا كيفية يتبعها، وإنما أشار إلى طرائق تساعده على الوصول إلى الغرض المقصود منه، ويمكن إرجاع هذه الطرائق إلى ثلاثة أمور:

(١) على المرأة أن تدع التبرج أمام الرجل الأجنبي.
(٢) عليها أن لا تخلو برجل أجنبي.
(٣) عليها أن لا تسافر من دون أن يكون معها أحد محارمها.

... إنَّ الحجاب الكثيف المعروف في الأمصار الإسلامية اليوم لم يكن مما شرعه الإسلام، وإنما حدث بحدوث ضعف الوازع الديني في النفوس.

... وطبيعة الإسلام هي أنه دين عام ملائم لمصلحة البشر قابل لتطبيق تعاليمه عليهم جميعًا مهما اختلفت عناصرهم ومواطنهم وأزمانهم، فالحجاب الذي يطبقه المجموع البشري هو ما قررناه في مقالنا السالف من ترك التبرج والخلوة بالأجنبي والسفر مع غير محرم، ولا ما يحدث ريبة أو يمس الشرف والكرامة.

... وإذا كان النساء قوة كان الاجتماع الإنساني مضطرًّا للانتفاع بهن، وبحسب اختلاف أطوار هذا الاجتماع تختلف طرائق الانتفاع، فعمران الأمصار الإسلامية أحاطت به مؤثرات اجتماعية جعلته يكتفي في الانتفاع من قوة النساء بالفراش والرضاع والطبخ، أما معيشة الإسكيمو والزولوس وأهل القرى — والبوادي، وعمران أمم أوروبا وأميركا، كل هؤلاء لا يمكنهم قط أن يفرطوا بقوة النساء فيلفقوهن بالآزار ويلزمهن بالقرار، ويقولون لهم: أنتن ضعاف لدن وربين واطبخن، ولستن مكلفات بغير ذلك، ومن تفطن لحالة البشر في سذاجتهم القديمة الابتدائية وتأثيرها في المجتمعين الابتدائي البدوي والمدني وحالتهم في حضارتهم الأوروبية الجديدة عرف مبلغ مساعدة المرأة في الحالتين وتأثيرها في المجتمعين الابتدائي البدوي والمدني ...»[٨]

هذا هو المغربي الفقيه المجدد في الدين الداعي إلى التفتيش عن جواهر الدين الإسلامي ولباب دعوته، الساعي إلى تطهيره من الأدران التي علقت به طوال قرون الجهل الثلاثة الأخيرة.

وكان المغربي إلى تلك النزعة التجديدية داعيًا إلى فتح باب «الاجتهاد» الديني حاضًّا على الاهتمام بأمره بين طبقات المثقفين، داعيًا إلى التآلف بين المذاهب والفرق الإسلامية، وله في ذلك مقالات ومحاضرات، ومن خير ما كتب في هذا مقالتان أحدهما عن «الحرية العلمية في الإسلام»[٩] والثانية عنوانها «لنجتهد في إيجاد المجتهد»؛[١٠] لأن الإسلام يفرض ذلك ويحض عليه، بل «يبيح لأي كان أن يقول الحقيقة التي يعتقدها، ويصرح بالعلم الذي يعلمه بشرط الوثوق منه ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وبشرط الإخلاص فيه ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أما فيما عدا ذلك فمنهيٌّ عنه أشد النهي؛ لأنه مجازفة في العلم، وفوضى تضر ولا تنفع.

وقد بلغت الحرية الفكرية في الأمة الإسلامية، صدرها الأول حدًّا لم تبلغه في أمة من الأمم، وقد كان العلماء من رجال النِّحل، والمذاهب الإسلامية المختلفة، يقصد كل واحد منهم في جانب من جوانب مسجد البصرة أو الكوفة، ويجلس إليه من يريد الاستفادة منه، والتلقي عنه، فيجهر العالم برأيه، وتأييد نحلته، والدفاع عن مذهبه، دون ما وجل أو خشية ...»[١١]

هكذا يريد المغربي أن يكون علماء عصره وفقهاؤه، كما يريد أن يكون الدين وأموره موضع مناقشة وبحث علميين صحيحين، يعتمد فيها على الكتاب والسنَّة والعقل الصحيح.

هوامش

(١) البينات ١ / ١١.
(٢) البينات ١ / ٢–١٧.
(٣) البينات ١ / ١٥.
(٤) توفي قاسم أمين في سنة ١٩٠٨م.
(٥) انظر كتاب «كلمتا الأستاذ المغربي في السفور والحجاب» ص٣٧–٣٩.
(٦) انظر رسالة «كلمتا الأستاذ المغربي في السفور والحجاب» ص١–١١.
(٧) المصدر السابق ص١٣.
(٨) كلمتا الأستاذ المغربي في السفور والحجاب ص١٤–٣٠.
(٩) نشرت في كتاب «البينات» ١ / ١٣٢.
(١٠) نشرت في كتاب «البينات» ٢ / ٤٧.
(١١) راجع كتاب البينات ١ / ١٣٥ و٢ / ٤٧–٥٥.

المغربي المؤلف

كان للأستاذ المغربي خلق الأسلاف الصالحين، ودءوبهم على التحصيل وانصرافهم إلى التحقيق والتأليف، وقد خلف لنا آثارًا جليلة من مؤلفاته ومحاضراته ومقالاته، فقد كان له قلم سيال وفكر جوال، عالج بهما قضايا الدين واللغة والأدب معالجة اللقن الذكي المجتهد، الذي لا يألو في خدمة دينه ولغته وآدابها وله في هذه الحقول مؤلفات عديدة طبع منها:

(١) كتاب «الاشتقاق والتعريب» طبع في سنة ١٩٠٨م ثم أعادت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعه في سنة ١٩٤٧م.

(٢) «كلمتان في السفور والحجاب» طبع سنة ١٩١٠-١٩١١م.

(٣) كتاب «البينات» في مجلدين طبع سنة ١٣٤٣-١٣٤٤هـ.

(٤) كتاب «الأخلاق والواجبات» طبع سنة ١٩٢٠م، ثم سنة ١٩٢٩م/١٣٤٧هـ.

(٥) محاضرات عن «محمد ﷺ والمرأة. مع محاضرات في موضوعات أخرى» طبعت سنة ١٣٤٧هـ.

(٦) كتاب «جمال الدين الأفغاني، ذكريات وأحاديث» نُشِر في سلسلة «اقرأ» سنة ١٩٤٨م.

(٧) «مناظرة أدبية لغوية» بين المغربي والبستاني والكرملي، نشرها الأستاذ حسام الدين القدسي سنة ١٣٥٥هـ.

(٨) تائية عامر بن عامر البصري بشرح المغربي وتحقيقه، نشرها المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٤٨م.

(٩) تفسير جزء تبارك، طبعته الحكومة المصرية في المطبعة الأميرية ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.
(١٠) كتاب على هامش التفسير، طبعته مكتبة الآداب المصرية ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.
(١١) كتيب «عثرات اللسان»، طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٦١هـ/١٩٤٩م.
(١٢) تحقيق كتاب «التنبيه على غلط الجاهل والنبيه»، نشره في مجلة المجمع العلمي ٦/٤٣ وما بعدها.

أما مؤلفاته التي ما تزال مخطوطة فهي:

(١٣) مجموعة مقالاته وأبحاثه التي نشرها في الصحف والمجلات. وقد صنفها تصنيفًا كاملًا وأعدها للطبع في مجلدات عديدة تبلغ العشرة.
(١٤) مجموعة محاضراته التي لم تنشر، وهي في مجلد واحد ضخم.
(١٥) أحسن القصص والتاريخ النبوي المقدس.
(١٦) المعجم اللغوي.
(١٧) أقرب الطرائق إلى كنز الدقائق في الفقه الحنفي.
(١٨) العقائد الإسلامية.
(١٩) شرح مقصورة ابن دريد.
(٢٠) طائفة من الأشعار في وصف الصحاري والقفار.
(٢١) تاريخ آداب اللغة العربية.
(٢٢) فنون البلاغة.
(٢٣) التعليم بالمراسلة.
(٢٤) النُّخَب أو نوادر العلوم وفرائد الأدب.
(٢٥) النجم الآفل.

هذا ثبت كتبه التي خلَّفهما، وهي — كما ترون — متنوعة النواحي إلا أنها تدور في فلك الدين واللغة والأدب والاجتماع، ويجدر بنا هاهنا أن نشير إلى كتاب «النجم الآفل»، وهو ترجمة للرواية الاجتماعية المشهورة بـ «غادة الكاميليا» التي أَلَّفها إسكندر دوماس، فقد كتب المغربي عن هذه الرواية بحثًا في مجلة الحديث الحلبية ١٩٢٩م قال فيه: إنه اشترك هو ومواطنه الطرابلسي السيد أميل شبطيني في ترجمتها، وإنهما أتما الترجمة في أربعة أشهر، وإنهما تصرفا فيها بعض التصرف، فكانا يحذفان ما لا يتفق وذوقهما،

مراعين في ذلك أخلاقنا وأساليب تفكيرنا. وبعد أن أتما ترجمتها أعاد المغربي قراءتها فحرر عبارتها، وأضاف إليها من الأشعار والأدوار الغنائية ما رآه لازمًا في بعض فصولها حتى إذا فرغت سماها «النجم الآفل» إشارة إلى أفول نجم مرجريت بطلة الرواية، وذهب بعد إتمام الترجمة والتصنيف إلى زيارة الشيخ سلامة حجازي الممثل المصري المشهور آنئذ فتلاها عليه في عدة جلسات، وأعجب بها الشيخ سلامة، فمثلها على مسرحه ليلة الأحد ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٠٨، وكان الإقبال عليها عظيمًا ... ويظهر أنَّ المغربي لم يكن يرغب في أن يعرف الناس أنه قد ترجم هذه الرواية، وأنه نظم أغانيها ووضع أدوارها الغنائية؛ فلذلك لم يوافق زميله في ترجمتها السيد أميل على طبعها لبعض العبارات المتعلقة بشخصه، وما تزال الرواية محفوظة في خزانة المغربي، ويظهر أنه كان لا يحب أن يعرف عنه أنه اهتم بالروايات والمسرحيات لما في ذلك من الغض من سمعته ومكانته الدينية.

ولا بد لنا من الوقوف أمام بعض كتبه المطبوعة وتحليلها لنتبين طريقته في التأليف، وأسلوبه، وأهدافه، وما أفادته العربية من جهوده التي بذلها في تآليفه، وسنخص البحث بالكتب الآتية:

(١) الاشتقاق والتعريب

هو كتاب يبحث فيما يعرض للغة العربية من تكاثر كلماتها بواسطتي الاشتقاق والتعريب، وأنَّ هذا الأخير طبيعي في لغتنا وفي غيرها من اللغات، وأنَّ استعمال المعرب لا يحط من قدر فصاحة الكلام، وقد أثبت ذلك وأكثر من التدليل عليه والاستشهاد على صحته بأقوال أئمة ورجال مشهود لهم.

وقد قال في مطلع الطبعة الثانية ١٩٤٧م من هذا الكتاب مبينًا أهدافه: «ولقد طُبع كتابي «الاشتقاق والتعريب» طبعته الأولى في مصر سنة ١٩٠٨م، فيكون قد مضى عليه زهاء أربعين سنة، وهو يؤدي رسالته، وينشر دعوته إلى قبول التعريب وإثبات أنه قانون طبيعي في كل لغة من لغات البشر، لا اللغة العربية وحدها، وأنَّ على أبناء هذه اللغة أن يستفيدوا منه في تنمية لغتهم وتوسيع دائرة التخاطب بها»،[١] فالمغربي يرى أنَّ التعريب والاشتقاق طبيعيان في اللغة، وأنهما فصيحان كالكلمات الأصلية، وقد كان لهذا الرأي الجريء الذي قال به المغربي قبل نصف قرن صداه البعيد، على الرغم من قوة خصومه القائلين بوجوب تنقية اللغة من المفردات المعربة الدخيلة، وقصر الاشتقاق

على ما كان سار عليه القدماء، فإن الألفاظ الأعجمية إذا ما دخلت اللغة وصقلها اللسان العربي استعربت، وأصبحت كأنها من المفردات الأصلية. والمغربي بهذا الرأي يريد أن تبقى اللغة العربية متطورة مع الزمن تطورًا سليمًا صحيحًا، تأخذ من اللغات الحية مما تزيد به مفرداتها زيادة تجاري بها سير ركب العلم والحضارة. وقد كانت كلمة المغربي هذه حافزًا لأهل الحل والعقد، يحفزهم إلى إيجاد مؤسسات ثقافية أو مجامع علمية تقوم بهذا العمل قيامًا صحيحًا، يُبْعِد الفوضى عن اللغة، ويوقف سيل الهجوم على بعض الكتَّاب، الذين يستعملون بعض الكلمات المعربة والدخيلة في كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم، فيحتدم الجدال بينهم وبين المحافظين، وقد كان الشيخ المغربي في مقالاته التي كتبها في جريدة المؤيد ما بين عامي ١٩٠٦، ١٩٠٩م مسعر نار الحرب الكلامية في هذا الباب، واضطر خصومه إلى عقد جلسات مناظرات ومحاورات اشترك فيها نفر كبير من أساطين اللغة والأدب المعروفين في ذلك الحين أمثال: حفني ناصف، وعبد العزيز جاويش، ومحمد الخضري، وأحمد الإسكندري، وأحمد زكي، وحسين والي. وكان ختام تلك المناظرات جلسة عقدت في مساء ٢٠ حزيران ١٩٠٨م خطب فيها نفر من هؤلاء الأعلام، وقد انقسموا قسمين: قسم يرى رأي المغربي، وقسم يخالفه، وانتهى بهم المطاف إلى تحكيم العلامة أحمد فتحي زغلول، فألقى كلمة رائعة جاء فيها: «إذا عرض لنا لفظ أعجمي ترجمناه إلى لغتنا، وإذا تعذرت ترجمته اشتققنا له اسمًا من لغتنا، وإذا تعذر ذلك استعملنا مكان الأعجمي كلمة عربية مصوغة بإحدى طرق المجاز، وإن لم يمكن شيء من ذلك نلجأ إلى تعريبه أسوةً بالمعربات السائدة في لغتنا.»[٢]

وقد كانت هذه الكلمة انتصارًا لمذهب المغربي، الذي انصرف منذ ذلك الوقت إلى بحث موضوع الاشتقاق والتعريب والكتابة فيه؛ لتأكيد وجهة نظره طوال فترة بقائه في مصر، ولما عاد المغربي إلى الشام أخذ يدعو إلى فكرته ويكتب فيها، فلما أسس المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩١٩ واختير المغربي في عداد مؤسسه، وأنشأت الحكومة العربية الفيصلية دائرة أسمتها «شعبة الترجمة والتأليف» ١٩١٩ كانت مهمتها تدبر شئون مفردات اللغة في دواوين الدولة العربية الفتية، واستبدال الكلمات التركية والأجنبية بكلمات عربية، وكان الأساتذة فارس الخوري، وعبد القادر المغربي، وعبد الرحمن الشهبندر، ومحمد كرد علي من القائمين بهذه المهمة العلمية، ثم بعد فترة؛ أي في يوم (٨/ ٦/ ١٩١٩) رأى جلالة الملك فيصل الأول إنشاء مجمع علمي تابع لوزارة المعارف؛ للقيام بهذه الأعمال، فأمر بإنشائه وعهد برئاسته إلى الأستاذ محمد كرد علي،

وكان المغربي من أبرز أعضائه العاملين، وكانت مشكلة الوضع والتعريب من أخطر المشاكل التي استقبلها المجمع، ولكن الشيخ المغربي استطاع هو وإخوانه أن يذلل صعوباتها، ويضع عددًا كبيرًا من المفردات المعربة، كما كان لهم سعي مشكور، وأثر واضح في السعي؛ لإيجاد معجم جديد في اللغة العربية ينظم المفردات الحديثة. ويجمع اللغة المستعملة، وقد تقدم الأستاذ المغربي بتقرير مفصل عن فكرة المعجم إلى زملائه أعضاء المجمع في جلسة يوم الجمعة ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٤، وإليكم خلاصة ذلك التقرير: هناك ثلاثة أمور يذكرها الفضلاء في صيغة المعجم وشرائط تأليفه وهي:

(أ) حسن اختيار الكلمات، فنختار له من الكلمات ما نحن في حاجة إليه، ونهمل ما لا حاجة لنا به.

(ب) أن يضاف إليه كلمات جديدة دخيلة ومولدة ومنحوتة ومشتقة، مما تستدعيه حاجة الفنون المعربة والاختراعات الحديثة.

(جـ) أن لا يشتغل واضعو المعجم بالعمل منفردين؛ بل عليهم أن يستعينوا برأي علماء اللغة أو مجامعها في الأقطار العربية توحيدًا لكلمات اللغة وطرق استعمالها،[٣] ولكن هدف المغربي لم يتحقق لصعوبة القيام بعبء هذا المعجم، فانصرف إلى كتابة المقالات، ونشر البحوث اللغوية في الصحف والمجلات العلمية وبخاصة مجلة المجمع العلمي العربي إلى أن أسس مجمع فؤاد الأول للغة العربية «مجمع اللغة العربية المصري» في سنة ١٩٣١، وانتخب المغربي عضوًا فيه، فقال في كلمته يوم الافتتاح:

> يكاد لا يفهم الجمهور من وظائف المجمع إلا أن عليه أن يتتبع الكلمات — الدخيلة والأعجمية المتفشية في لغته اليومية، وأن يستبدل ألفاظًا عربية لها، حتى كان هذا العمل أو هذا الغرض هو كل ما يرتجى من المجمع، وقد نسوا ما للمجمع من فضل في توجيه الأغراض الأخرى حقها، ولا سيما وضع ألوف الكلمات للغة الدراسة؛ أي لغة العلوم والفنون … ماذا صنع حماة اللغة، الغير على سلامتها بكلمات: براشوت «شتوكا» جستابو كوماندوس … هما رأيان بدآ يتصاولان منذ زمن الشيخ رفاعة الطهطاوي، أو نقول منذ عهد الترجمة الأول، وما زالا في الصيال حتى أسلما أمرهما أخيرًا إلى مجمع فؤاد ونزلا على حكمه. حقًّا إنَّ مسألة التعريب أو نقول: إنَّ مسألة التردد في قبول الكلمات الأعجمية، وعدم قبولها أخل بنهضتنا اللغوية وأخرها إلى الوراء أكثر

من نصف قرن؛ ولذا كان التعريب من أعظم الأغراض التي ينبغي أن تعنى بها المجامع اللغوية، وهو فوق ذلك موضوع معقد خطر، ولم ننس بعد ما كان من اختلاف الرأي حول وضع اصطلاحات عربية للجيش المصري مكان اصطلاحاته القديمة، وكم عالم غيور من رجال نهضتنا الحديثة قضى نحبه وبقلبه شيء أو حسرة من التعريب!

فأنتم ترون أنَّ المغربي ظلَّ وفيًّا لفكرته في وجوب التعريب، وقد دافع عن ذلك دفاعًا مجيدًا في كتابه المشار إليه، وفي بحوثه العديدة التي نشرها في مجلة مجمع دمشق وفصلها في بحوثه في مجلة مجمع القاهرة.

(٢) عثرات اللسان في اللغة

هو كتيب لطيف يمت بصلة قوية إلى الكتاب السابق، بحث فيه عن عثرات الكتَّاب والخطباء في اللغة، وأصل هذا الكتاب محاضرة كان ألقاها المغربي في ردهة مجمع دمشق بعنوان «عثرات الأفمام» في ١ شباط (فبراير) ١٩٤٤، ناقش فيها الأغلاط اللغوية التي يظهر خطؤها حين النطق بها. وهي لو كتبتها الأقلام لما كان بين خطئها وصوابها من فرق، وقد قسم المؤلف هذه الأغلاط إلى عشرة أصناف «فالكلمة يكون أولها مفتوحًا في فصيح اللغة فيضمه الناس أو يكسرونه، أو مكسورًا فيضمونه أو يفتحونه، أو يكون وسطها متحركًا فيسكنونه، أو ساكنًا فيحركونه، أو مشددًا فيخففونه، أو مخففًا فيشددونه كل ذلك يفصلونه على خلاف الفصيح المعروف لدى أهل اللسان».[٤]

وقد اهتم المغربي بهذه الناحية اهتمامًا شديدًا فجمع أكثر من ثلاثمائة كلمة تعثر بها الأفمام وتلفظها لفظًا خاطئًا، فصنفها تصنيفًا دقيقًا، عمد من ورائه إلى إحياء اللغة الفصيحة وتطهيرها من العاميَّة المبتذلة واستعمال الكلمات الصحيحة مكانها.

وقد ذكر في صدر كتابه ملاحظة لطيفة بين فيها أنَّ الكلمات اللغوية قسمان: قسم سماه «الكلمات الأدبية»، وهي التي تستعمل في الخطابة والكتابة والتأليف، وقسم سماه «الكلمات اليومية»، وهي التي تستعمل في لغة الحياة العامة في البيت والشارع ومجالات الأنس والسمر. وإنه قصر بحثه في كتابه هذا على الكلمات اليومية. ولا بأس أن أورد عليكم طرفًا من مباحث ذلك الكتاب لتعرفوا طريقة الشيخ ومقدار حرصه على اللغة العربية وعنايته بحمايتها قال: يقولون «حَلَوِيَّات» مجموعة الأطعمة الحلوة، يفتحون

اللام ويكسرون الواو ويشددون الياء خطأ كأنها جمع حَلِوِيَّة، ولا يوجد في كلام العرب حلوية، وإنما «حَلْوَيَات» جمع «حَلْوَى» بالألف المقصورة، فالواجب أن تلفظ بفتح الحاء وسكون اللام وفتح الياء من دون تشديد، وإذا جعلناها جمعًا لحلواء بالألف الممدودة زدنا ألفًا بعد الواو في الجمع، فنقول «حَلوَيات»، والياء مخففة أيضًا إلا أن يدعي مدع بأن «حلويات» المشددة الياء نسبة إلى «حلو»، فيقال فيه «حُلويٌّ» وجمعه «حُلوِيات»، فيكون خطأ العامة فيه فتح الحاء واللام وصوابه ضم الحاء وسكون اللام.

وقال «حمَّارة الحرِّ صبَّارة البرد»؛ أي شدتهما، يشددون ميم «حمَّارة» وباء «صبَّارة» ويخففون راءهما، وهو خطأ من فعلهم والصواب العكس؛ أي تخفيف الميم والباء وتشديد الراء فيهما، وقيل بجواز ما قالوا.[٥]

هذا نمط من مباحث «عثرات اللسان» وللمغربي مباحث ومقالات عديدة نشرها في مجلات مجامع مصر والشام والعراق كلها تنطق عن تعمقه في مباحث اللغة، وتبين حرصه الشديد على حمايتها من عبث العابثين.

وله في مباحث اللغة دراسات طويلة وآراء صائبة في القضايا اللغوية لا يتسع المجال للإفاضة فيها، فمن ذلك رأيه في أنَّ كثيرًا من الكلمات الرباعية والخماسية يمكن إرجاعه إلى كلمتين ثلاثيتين بسهولة، فقد تبين أن تكوُّن تلكم الكلمات في لغة العرب إنما كان بوساطة ما سماه «الاشتقاق النحتي»، فكلمة «دحرج» منحوتة من «دحره فجرى»، وكلمة «هرول» من «هرب وولى» و«خرمش» من «خرم وشوه» وما إلى ذلك من المباحث التي تدل على عمق تفكير وسعة اطلاع، ولقد عرف فضله في هذا الباب المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب الشاعر المصري الفحل، فقال فيه من قصيدة بمدحه عام ١٩٠٩م، ويعتذر عن عدم تمكنه من توديعه حين مغادرته مصر إلى الشام:

فهل مبلغٌ أشواقَ مصر وأهلها	نسيمٌ يوافي «المغربي» فيسمعا
أقام بها حينًا من الدهرِ لم يكن	سوى البحر فيَّاضًا سوى الليث أروَعا
له قلمٌ يعلو به الحقُّ إن جرى	وكان به «يحلو» المؤيد مشرعا
إذا استله في المعضلات رأيته	به الله تبيان الحقائق أودعا
ثوى بيننا في سيرة نبوية	نشُمُّ لها روحًا من المسك أسطعا

(٣) الأخلاق والواجبات

انصرف المغربي بعد تركه نشاطه السياسي الذي كان يزاوله في العهد العثماني، وبخاصة خلال الحرب العالمية الأولى، إلى التأليف العلمي الهادئ، وكان كتاب «الأخلاق والواجبات» أول ثمرات هذه الفترة من حياته، وهو مؤلف إصلاحي اجتماعي أَلَّفه حينما رأى (أَنَّ المكتبة الإسلامية — على وفرة ما حوته من الكتب والأشعار المؤلفة في الفنون المختلفة — لم يكن فيها من المؤلفات المترجمة للأخلاق، الخاصة على الآداب، المرغبة في الفضائل. وإذا تساءلنا عن كتب الأخلاق المتداولة بيننا اليوم لم نكد نعد منها سوى «كتاب الأخلاق» لابن مسكويه، و«أدب الدنيا والدين» للماوردي و«الجزء الرابع من إحياء الإمام الغزالي». إنَّ الكتب الثلاثة التي ذكرناها هي نفسها، لا يكاد يفهمها أو يستفيد منها إلا أفراد قلائل أيضًا، وكتاب ابن مسكويه احتذى فيه مثال الحكماء والفلاسفة وسلك طرائقهم في البيان والشرح وما لنا ولما قاله أولئك الحكماء الأقدمون وهذا قرآننا وحديث نبينا ﷺ تضمنا من روائع الحكم في الفضائل والآداب والحث على مكارم الأخلاق ما يبذ القائلين، ويفي بحاجة المحتاجين، وكل ما نريد اليوم كتب أخلاقية يستعين بها المسلمون والآباء والمتصدون لإرشاد العامة ولتربية الطلاب والناشئين، وقد أَلَّف المغربي كتابه هذا فجاء ضخمًا إذ تعمَّد فيه إلى توفية الأمور الأخلاقية والدينية، التي عالجها ما تستحقه من العناية، وأسهب، ورأى وزير معارف الحكومة العربية الفيصلية إذ ذلك الأستاذ الكبير ساطع الحصري أنَّ ما كتبه الشيخ مطول جدًّا فطلب إليه اختصاره، وأن يقتصر فيه عن المنقول والمأثور — على ما ورد في الكتاب السماوي والحديث النبوي، اللهم ما جاء عرضًا من أقوال الحكماء مما يلتحم معناه مع معنى الآيات والأحاديث، ففعل ذلك كله، وأفرغ الكتاب في أسلوب سهل المأخذ قريب المتناول.

والكتاب مقسم إلى «مقدمة» بحث فيها القرآن والحديث بحثًا جد مفيد، يلخص فيه كافة علوم القرآن والحديث ومباحثها مما لا يدع مزيدًا لمستزيد. ثم ذكر «تمهيدًا» بحث فيه عن مكانة الأخلاق وعن الأخلاق والإيمان، وعن الأخلاق والعبادات، وعن الدنيا والآخرة والخير والواجب، ثم شرع في ذكر مباحث الواجبات بعد أن قسمها إلى أربعة أقسام:

(١) الواجبات الشخصية وبحث فيها عن وجوب اهتمام المرء بالصحة والتداوي والنظافة والطهارة، والعلم والعقل، والصبر والشجاعة، والصدق والكذب، والعمل والسعي والزراعة والصناعة، والكسب والتجارة وما إلى ذلك.

(٢) الواجبات العائلية وبحث فيها عما ورد في الدين عن الأهل والعيال والنكاح والطلاق وأحكام النساء والأيتام وما إلى ذلك.

(٣) الواجبات الاجتماعية وبحث عن مزايا الجماعة والتعاون والرحمة والصدقة والأمانة والعدل، وما إلى ذلك من مباحث الأخلاق الاجتماعية.

(٤) الواجبات المدنية وفيها بحث لطيف عن واجبات الفرد نحو الوطن والحكومة ووجوب الدفاع عن الوطن، والنصح للحكام والطاعة لهم وما إلى ذلك.

ثم ختم الكتاب بمختارات من القرآن والحديث يستظهرها الفرد، ويستعين بها على تدارس أمور الأخلاق والواجبات الدينية.

وقد لقي الكتاب رواجًا عظيمًا في كافة أرجاء العالم الإسلامي بسهولة عبارته، وصفاء سريرته، ونقاء سيرة مؤلفه، وصدقه في دعوته.

ومما يلحق بهذا الباب «كتاب البينات» الذي نشر منه جزأين اختار فيهما بعض مقالاته الاجتماعية الإصلاحية عن «الإصلاح الإسلامي والباعث عليه وفهرس أركانه» وعن «البطالة والعمل» و«العائلة» و«الحرية العلمية في الإسلام» و«الزواج والحب» و«الطلاق في الإسلام» و«التربية النفسية والمقارنة بين كتبها الابتدائية». و«الإنفاق في الكماليات» و«الأخلاق والعقائد والأولياء والمراقد» وما إلى هذه الأمور من مباحث الإصلاح الاجتماعي الديني الذي نذر المغربي نفسه للقيام بأعبائه، والمغربي في حملته الإصلاحية سائر على خطى شيخه الأفغاني ومحمد عبده، متخذ سنة السلف الصالح من الاعتماد على ما ورد في معالجة هذه الأمور في الكتاب السماوي والحديث النبوي والاسترشاد بأقوال الحكماء والفلاسفة المعاصرين من شرقيين وغربيين، وهو على الرغم من كونه نشأ نشأة دينية تقليدية، كان نزاعًا إلى التجديد محاولًا أن يطلع على كل ما جد في عصره من أقوال الفلاسفة والمذاهب الحديثة ومناقشتها مناقشة تلائم طبعه وبيئته، فقد ناقش في بحث له نشر سنة ١٩٠٨م/١٣٢٥هـ موضوع الفقر والعدالة الاجتماعية وخطر «الاشتراكية» فقال: «إنَّ الزكاة الشرعية هي دواء الاشتراكية، وبما أنَّ أمور الزكاة غير منتظمة، وهذا سينشأ عنه انتشار الاشتراكية» وقال أيضًا: «إنَّ الأسباب الحائلة بين المسلمين وبين اطراد إخراج الزكاة وجني ثمرتها الاجتماعية هي أمور ثلاثة:

أولها: ترك إخراجها إلى تقوى المرء بحيث لا يكون له محاسب سوى نفسه، ولما انحطت الأمة في علمها ومجموع أخلاقها وشئونها الاجتماعية والسياسية، تبع ذلك إهمال الفريضة فلم يعد يخرجها إلا القليل ممن تشبع بروح الدين.

وثانيها: أنَّ هذا القليل يوزع مبالغ طفيفة — حسب رأي الفقهاء — فلا يكون لها أثر في تحسين حالة الفقراء.

وثالثها: أنَّ مصارف الزكاة — أي مستحقيها — اختلط حابلهم بنابلهم، فلم يعد يعرف المستحق من غيره، وربما كان في هذا ما يثبط عزائم المزكين.»

وقد اقترح المغربي حلًّا لهذه المشاكل أن تؤلف في كل بلدة إسلامية لجنة من أهل الدين والعفة والأمانة، بحيث تتوفر على الوساطة بين الأغنياء، وتعد لذلك الأمر عدته من اتخاذ الأعوان والنقباء للبحث عن المستحقين وما مبلغ حاجة الواحد منهم، وأيهم الأكثر استحقاقًا وأشد عوزًا، ثم تتناول هذه اللجنة أموال الزكاة من الأغنياء وتصرفها عنهم بالوكالة إلى الفقراء بتعليم أولادهم العلوم والصنائع وإعطائهم رءوس أموال يشتغلون بها وبناء ملاجئ للزَّمنَى ومستشفيات للمرضى ... إلخ.

هذا العلاج الإسلامي لفشو «الاشتراكية» في رأي المغربي؛ لأن الغرض منها «التوفيق بين الطبقة العالية والطبقات السفلى من الفقراء والعمال، وأن يكون لهؤلاء نصيب من الحظوظ التي ساقتها التقادير إلى أولئك»، وإذا كان الأمر كذلك «فروح الاشتراكية تكونه موائمة لروح الدين، ويكون للاشتراكية من الزكاة الإسلامية دواء ناجع لدائها. أما إذا كان الغرض من الاشتراكية معنى غير الذي قلنا، فلنبحث لها عن دواء غير الذي ذكرناه ولا نظننا نجده، بل لا تظنه موجودًا».[٦]

هذا نمط من طريقة المغربي في معالجة بعض المشاكل الاجتماعية الصعبة، ولا شك عندنا في أنَّ المعلومات التي كان يعرفها عن الاشتراكية كانت معلومات أولية؛ لأن الناس في ذلك الحين كانوا لا يعرفون عنها إلا معلومات ساذجة، وما كانت الخزانة العربية قد ترجمت بعدُ المهم من مباحث العلماء عن الاشتراكية، إذ ليس ثمة من صلة بين موضوع فريضة الزكاة التي شرعها الإسلام، وبين الاشتراكية كبحث اقتصادي، فإن ما جاء به الإسلام ليس إلا دعوة دينية إصلاحية. أما الاشتراكية فمذهب اجتماعي وسياسي واقتصادي يقول الدكتور عبد الوهاب حومد: «إنَّ الدعوات الدينية ليست دعوات اشتراكية اقتصادية، وإنما هي مذاهب إصلاحية هالها هذا التفاوت بين طبقات المجتمع وهي مكونة من أفراد أمهم حواء وأبوهم آدم، فعملت على تحسين أوضاع المحرومين، وهذا الطابع الإصلاحي واضح جدًّا في الدعوة الإسلامية حتى إنها جعلت الزكاة ركنًا من أركان الدين، وحفل القرآن بكثير من الآيات التي تحض على التصديق، أما الاشتراكية

فهي مسألة اقتصادية خالصة يترتب عليها نتائج اقتصادية قد تنعكس عكس الأخلاق، ولكنه انعكاس غير مباشر وعلى هذا يكون ما قاله شوقي:

الإشتراكيُّون أنتَ إمامُهم

قول شاعر يرصف الكلام ويجيد قوله، لكنه ليس من العلم في شيء.[٧]

ومهما يكن من أمر فإن نظرة المغربي إلى كل المذاهب الغربية كانت نظرة المسلم المحافظ الذي يرى في كتاب الله وسنة رسوله وأقوال السلف جماع كل شيء، ومنها علاج كل قضية اجتماعية وسياسية، على هذا نشأ وعليه رحل فلا مساغ لمجادلته في آرائه ومعتقداته.

(٤) كتابا «تفسير جزء تبارك» و«على هامش التفسير»

ألَّف المغربي كتابه في تفسير جزء «تبارك» في سنة ١٩٢٠ تتميمًا لما كان بدأ به أستاذه الإمام محمد عبده من تفسير جزء «عمَّ»؛ لأن هذين الجزأين «من أكثر الأجزاء شيوعًا بين طلاب المدارس، وتداولًا بين عامة المسلمين وأيدي صغارهم، وآياتهما أشد علوقًا بالنفس، وترديدًا في الأفواه عن سائر آيات الكتاب». وتفسير جزء «عمَّ» للأستاذ الإمام من خير الكتب التي لقيت أحسن القبول لإتقان تأليفه وسموُّ أسلوبه وتقريبه معاني الذكر الحكيم إلى أذهان العامة والمتعلمين، وقد راج رواجًا عظيمًا وطبع عدة مرات، فأراد المغربي أن يحذو حذو أستاذه، ويعمل على سد الثغرة التي تركها أستاذه الإمام، فقد بلغه أنه كان فكر في تفسير جزء «تبارك» وأنه «كان هيأ صحائف بيضاء رقم في رءوسها آيات ذلك الجزء، وتركها غفلًا من الكتابة على أمل أن يصطحبها معه في بعض أسفاره، ويملأها تفسيرًا وتعليقًا، كما كان أمره في تفسير جزء عمَّ الذي ألَّفه في غضون سفره إلى البلاد المغربية لكنه اخترمته منيته قبل أن تتحقق أمنيته». ألَّف المغربي تفسير جزء تبارك متوخيًا طريقة أستاذه الجليل «فيما علقه على جزء «عمَّ» من جهتي الصحة في التعبير، والاقتصار على المفيد من القول»[٨] إلا أنه اضطر فيما يظهر إلى التوسع قليلًا والإكثار من الاستشهاد والتنظير ولا سيما في المباحث اللغوية بأكثر مما فصله الأستاذ الإمام مراعيًا في ذلك حالة قراء جزء «تبارك» ومقدرًا أنَّ قارئيه أكبر سنًّا، وأتم استعدادًا وأشد اهتمامًا. والكتاب في ثلاثمائة صحيفة بالقطع الكبير طبعت منه وزارة المعارف

المصرية للمرة الأولى في سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م خمسة عشر ألف نسخة، وأعيد طبعه في هذه الآونة طبعة شعبية.

وقد سلك المغربي فيه طريقة الإمام في التعليق على الآيات الكريمة، ولكنه وسع في شرح المفردات اللغوية وأكثر من الشواهد الأدبية، وقد صدره ببحث لطيف ذكر فيه أنَّ جميع سور هذا الجزء المبارك، قد أنزلت بمكة؛ أي قبل الهجرة، ومن ثم كان الخطاب الإلهي فيها موجهًا إلى المشركين وهو في الأغلب يدور حول إثبات وجود الله والاستدلال عليه بما خلق من الكائنات، ثم إثبات نبوة محمد ﷺ وأنه صادق في دعوى الرسالة والوحي، ثم تقريع المكذبين وتخويفهم ما بين أيديهم من هول الحشر والحساب، وأنَّ هذا الحشر ممكن وسيقع بالفعل، فيلقى كل فريق من الجاحدين والمؤمنين جزاه اللائق به، في داره المعدة له، ووصف هاتين الدارين وصفًا بديعًا في أسلوبه عجيبًا في نسقه وتركيبه، ويتخلل الآيات تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه الشريف وحثه على الصبر والتجلد والتأسي بإخوانه الأنبياء الذين تقدموه ولقوا من أممهم مثل ما لقي أو أشد.[٩] ويلاحظ أنَّ المغربي قد أسهب في تفسير آيات نعيم المؤمنين في دار الآخرة فقد فسرها تفسيرًا قال عنه: «كانت تعرض لي وأنا أباشر التفسير، آيات النعيم ووصف ملذات الجنة والأشياء التي يستمتع بها في بحابحها فكنت أفسرها تفسيرًا ينفي الشبهة، ويزيح الشكوك، ويلتحم مع العقل السليم من دون أن أخرج عن قواعد اللغة والمعهود في أساليب العرب ومذاهبهم الكلامية، ومن دون أن أتخطى قواعد الإسلام وسلامة أصوله، التي تبنى عليها علاقة العقيدة، غير أني (من حيث لا أشعر)، كنت أسهب في تفسير آيات الملذات إسهابًا رأيتني فيه خرجت عن الاختصار الذي التزمته في تفسير آيات جزء تبارك». والحق أنَّ المغربي قد سلك في هذا الطريق مسلكًا ارتآه، ولكن جماعة من العلماء خالفوه فيه قديمًا وحديثًا ذاهبين إلى أنَّ ملذات الآخرة كملذات الدنيا التي يتمتع بها الجسم وتلذها العين واليد لا كما يقول هو من أنها ملذات روحية روحانية.

وقد انقسم أولئك العلماء إلى فريقين: فريق أول هم جمهور العلماء المتقدمين ومن تبعهم من عامة المسلمين إلى اليوم ممن قالوا بأن ما ذكره الله في القرآن عن الجنة وأسباب نعيمها داخل كله تحت القدرة الإلهية والإمكان العقلي، وقد خلق نظيره في دنيانا هذه، ومن خلق هذا قادر بالضرورة على خلق ذاك، فالواجب تصديقه والإيمان به من دون تأويل أو تعليل، حتى قال أبو قلابة المفسر المحدث البغدادي (٢٧٩) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾: إنَّ أهل الجنة يؤتون بالطعام والشراب

ممزوجًا بالكافور والزنجبيل، فإذا أكلوا وشربوا ما شاءوا دعوا بالشراب الطهور المذكور فيشربونه، فتطهر بذلك بطونهم، ويفيض عرق من جلودهم كريح المسك، فتضمر بذلك بطونهم.[10] وفريق ثانٍ هم الصوفية الذين اشتهروا بعشق الحضرة الإلهية والاستغراق في تقديس الذات الأحدية، فكلام هؤلاء يشعر بأن للأكل والشرب ولحم الطير والفاكهة والخمر واللبن والأكواب والحور والولدان والأساور والستور والوسائد، معاني أخر وراءها ما يستفاد منها لغةً، وأنَّ هذه المعاني هي المقصودة في الخطاب الإلهي.

والمغربي لا يرى رأي الفريقين وإنما يقول: إنَّ ثمة فريقًا ثالثًا لا يقيم وزنًا لما استند إليه الفريق الثاني من الكاشفات ومعرفة الأسرار، لا لأنهم ينكرون ذلك؛ بل لأنهم يقولون: إنَّ الله أنزل علينا القرآن بلسان عربي مبين، وكلفنا أن نتدبر ونتفهَّم معانيه ونعمل بها، وبديهي أنَّ الواسطة في فهم هذه المعاني واستخراجها من إطواء الخطاب الإلهي إنما هي اللغة العربية وطرق بلاغتها ومختلف أساليب التخاطب بها، وأنَّ تفسير آيات القرآن بواسطة «الذوق والمكاشفة» يروي الدعاوي الفاسدة، والمزاحم الفاسدة وينقلنا إلى عالم من الوهم والخيال، لا منتهى لحدوده، فلم يبق لنا حبل نتمسك به في الوصول إلى فهم القرآن سوى اللغة ومذاهب العرب في ملاحن كلامهم.[11]

هذا هو رأي المغربي في فهم نصوص القرآن وقد طبقه في تفسير كل ما ورد في القرآن من نعيم الجنة، فذكر في ذلك بحثًا طويلًا سماه «رسالة الحجج الظاهرة في ما هي ملذات الآخرة». أسهب فيها عن هذا الموضوع وأعاد وبدأ، وذهب إلى أنَّ الوحي الإلهي أراد أن يصف للمخاطبين آيات الملذات في الجنة بما ألفوه وكلفوا به من ملذاتهم الدنيوية على نحو ما يشعرون به مفرغًا، ذلك الوصف في التراكيب والأساليب التي اعتادوها في التخاطب بينهم ودرجوا عليها في ملاحن كلامهم؛ وذلك لعجز فطرهم وضعف استعدادهم عن فهم تلك الملذات الأخروية، وتعلقها بالكنه والحقيقة، فضرب لها مثلًا ملذات الدنيا ووسائل اجتلابها وأسباب الشعور بها من مثل الحور، واللحم، والخمر، واللبن، والفاكهة، والأسرة، والحرير، والذهب، والفضة، واللؤلؤ، ولا يخفى أن تمتع النفس بهذه المذكورات وتقليب النظر فيها، وممارسة الحواس لها من أكبر ملذات الدنيا وأسباب الترف فيها عند البشر عامةً، وعند العرب المخاطبين بالوحي لذلك العهد خاصة. فالمنعم في الجنة يشعر بلذة عجيبة، ثم يحس بمسرة غيرها شديدة التأثير في نفسه، ثم بلذة ثالثة وبأخرى غيرها رابعة وهكذا. فتتألف من مجموع هذه الملذات والمسرات وشعور النفس بها حالة صورها الوحي الإلهي للبشر بحالتهم التي يشعرونه

بها، مذ يتناولون ملذوذاتهم الدنيوية المتعددة الأنواع والمختلفة الأشكال، ويمارسون أسبابها ووسائلها كل ذلك تشويقًا لهم وحفزًا لهممهم إلى الإيمان والعمل الصالح وطاعة الله. ولا يلزم من هذا أن تكون ملذات الجنة روحانية أو معنوية لا وجود لها في الخارج ولا يشعر بها الجسم؛ لأنك إذا ضربت جود حاتم المعهود لك مثلًا لجود زيد لا يلزم منه أن يكون جود زيد أمرًا معنويًّا لا وجود له في الخارج، وإذا ضرب الله لنا لحم الطير مثلًا للذة من ملذات الجنة، لا يلزم منه أن تكون ملذة الجنة روحانية لا يحس بها الجسد، ويوشك أن يكون الشرح قد نقل الكلمات الدالة على المسرات من معناها اللغوي الدنيوي إلى معنى اصطلاحي جديد أخروي، فنقل كلمات الخمر واللبن واللحم والطير والحور والولدان من معانيها المعهودة في الدنيا إلى معانٍ أخرى؛ وهي وسائل اللذات والمسرات التي تكون في الجنة، فهذه الكلمات إذن لها معانٍ لغوية أخرى، ومعان أخرى عرفية أو شرعية، وهذه الكلمات الصوم والصلاة والزكاة وغيرها مما له معان لغوية ومعانٍ شرعية. ونحن نقول بأن لتلك الألفاظ «كالخمر والحور والولدان» مدلولات علوية تلائم الحياة الأخروية التي لا نستطيع اكتناهها في حياتنا الدنيا، وإنما فصل الشرع ذلك تفاديًا من وضع كلمات جديدة لهذه المسرات الأخروية، ليست من لغة العرب المخاطبين ولا يفهمونها، والحكمة تقضي أن لا يخاطبهم إلا بما يفهمون لتنهض الحجة عليهم. ولما كانت اللذات المادية كما نفهمها في هذه الحياة الدنيا غير ممكنة في تلك الحياة الأخرى وجب أن نحمل آيات النعيم ووصف اللذائذ الأخرى على المعنى الكنائي والأسلوب التمثيلي — كما وقع في قول الخنساء وأقوال كثيرين غيرها من فحول فصحاء العرب وبلغائهم — ولا يضر تلك الآيات، ولا يحط ذلك من قدر بلاغتها وقيمة إعجازها، بل على العكس يزيدها رونقًا وبلاغةً وحسنًا ويرفعها درجات في معارج الإبداع والإعجاز.

والمغربي في تفسير جزء «تبارك» يسلك طريقة المفسرين الأول من رجال مدرسة أبي عمرو بن العلاء، وأبي عبيدة الذين يمزجون التفسير بالآداب ويتفهمون القرآن بأساليب العرب، ولعل كتاب المجاز الذي ألَّفه أبو عبيدة وملأه بالشواهد الشعرية، وبحث فيه عن مجازات القرآن وكناياته دليل على ما قلناه.

وتفسير المغربي كتفسير محمد رشيد رضا وتفسير شيخهما محمد عبده، وهي من التفاسير الحديثة التي سار فيها أصحابها على مذهب السلف، ولعل رائد هذه الطريقة في العصور المتأخرة هو الإمام أبو الثناء الألوسي في العراق، والمصلح الشيخ جمال الدين القاسمي في الشام.

أما بعد فهذا بحث موجز عن المغربي المؤلف عمدنا فيه إلى دراسة بعض آثاره المطبوعة، لئلا يطول البحث بدراسة آثاره كلها، ولا بد لنا قبل ختام هذا الحديث من الوقوف أمام كتاب من أواخر كتبه التي نشرها هو شرح تائية عامر بن عامر البصري الصوفي الحكيم، فقد نشر التائية مع شرح موجز لأبياتها كشف فيه عن رموز الصوفية في أشعارهم وأفكارهم. ومن هذه الرسالة تتكشف لنا ناحية من نواحي الشيخ ما كنا لنعرفها عنه لولا هذه الرسالة، وهي معرفته الواسعة بالتصوف ومذاهبه، فقد قدم لنا الشيخ فيها «صورة من صور التفكير العربي جمع مصورها البارع في نقشها بين لونين: لون أدبي مشرق باسم، ولون صوفي عابس قاتم».

أما آثاره المخطوطة فنجمل الحديث عنها بما يلي:

(٥) «كتاب أحسن القصص أو التاريخ النبوي المقدس» في سيرة نبينا محمد ﷺ وتاريخ نشأته إلى حين وفاته

هو كتاب في السيرة أتى فيه المؤلف على تفاصيل حياة نبينا محمد ﷺ مبوبًا ومرتبًا ترتيبًا عصريًّا وقد ضمنه كثيرًا من الأبحاث والفوائد المتعلقة بأخلاق النبي الكريم وحقائق الشريعة التي أتى فيها بما يروق لدى الفضلاء المعاصرين، وصدره بمقدمة قال فيها: «إنَّ الغرض من هذا الكتاب فائدتان الأولى، تقوية إيماننا وازدياد ثقتنا بصحة ديننا، والثانية هي التأمل في أخلاق النبي، وروائع آدابه، وتدبر أعمال الصحابة وجليل مآثرهم، والمقارنة بين جميع ذلك، وبين ما نحن عليه اليوم من الأخلاق والآداب، وأن نتخذ من سيرته ﷺ وآدابه وآداب صحابته ما نقتدي به ونعمل على شاكلته.»

وقد أفرد في مستهله بحثًا من المؤلفين في سيرة النبي ﷺ، ثم وصفًا لحالة العالم قبيل البعثة، وبحثًا عن حال جزيرة العرب قبل الإسلام وعن قريش وطفولة النبي وشبابه وزواجه، ثم تكلم عن الوحي وعن صبر النبي على أذى المشركين وعن صحابته وغزواته، وما تخلل ذلك من الحوادث التي تشيد بصدق هذه الدعوة المحمدية، كل ذلك بأسلوب بالغ الروعة، غير أنَّ المؤلف بعد أن تكلم على سرية زيد بن حارثة وقف عند غزوة أحد ولم يكمل الباب.

(٦) المعجم اللغوي

هو معجم لطيف جمع فيه ما يحتاجه المؤلفون والكتاب في الفنون المختلفة العصرية والإدارية من الألفاظ والتراكيب التي يجدر بهم استعمالها في كتاباتهم وتآليفهم، فتحيا بها اللغة العربية وتجاري غيرها من اللغات الحية في حلبة التأليف الفني الصحيح، وقد نهج في هذا المعجم نهجًا جديدًا، وهو أنه قسم كلمات اللغة إلى ألفاظ زراعية، وصناعية وإدارية، وعسكرية، واقتصادية، وحقوقية، وتجارية، وفنية، وكلمات علمية عامة أدرجها تحت عنوان «المعارف» ثم ذكر كلمات مختلفة لمعان مختلفة، وجعل كل نوع من هذه الألفاظ في باب خاص، كما أورد معناها والمراد منها بأسلوب سهل واضح إلا أنَّ هذا التأليف لم يتم ووقف المؤلف فيه عند حرف الذال.

(٧) أقرب الطرائق إلى كنز الدقائق

هو كتاب كان وضعه وهو في طور التحصيل شرح فيه «متن الكنز» في الفقه الحنفي شرحًا قرب مسائله إلى أذهان المتعلمين، ومما قاله في مقدمته: «إنه قد اقتصر على المسائل الفقهية التي يكثر حدوثها وتحاشي الألفاظ التي يقبح سمعها بقدر الإمكان»، ولم يتعرض للخلافات بل ذكر القول المعتمد، وقد توخى الإيجاز حين يرى الإيجاز ألزم، والإسهاب حين يراه أنفع، وهو شرح سهل العبارة بسط فيه المسائل الفقهية تبسيطًا علميًّا قريبًا من أذهان أهل العلم والمراجعين.

(٨) رسالة العقائد الإسلامية

هي رسالة في العقائد الإسلامية أفرغها المغربي بأسلوب يقرِّبها من أذهان الطلاب، وقد جمع فيها ما ينبغي معرفته في هذا الموضوع، كما ضرب أمثلة، وأتى باستدلالات معقولة تساعد على تفهم مسائل هذا العلم، لا سيما ما يتعلق بوجود الله تعالى والنبوات والمعجزات.

(٩) كتاب شرح مقصورة ابن دريد

هو كتاب كبير شرح فيه أبيات المقصورة الدريدية بأسلوب طلي رائع في الإبانة، وحلل ألفاظها تحليلًا لغويًّا يغني المتعلم والمتأدب عن الرجوع إلى أستاذ يساعده على فهمها، وصدَّرها بمقدمة أفاض فيها في ضرورة العناية باللغة العربية لأمم «الجامعة الدينية والجامعة الوطنية»، وشرح المزايا التي تتحلى بها المقصورة الدريدية وما جمعته من ضروب المديح والفخر والحماسة والغزل والتاريخ، وشكوى الزمان، ووصف السحاب والخيل والإبل، والحكم الرائعة، والأمثال البديعة، والمواعظ البليغة، ثم عقد فصلًا أوجز فيه سيرة صاحب المقصورة أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي.

(١٠) مجموعة طائفة من الأشعار في وصف الصحاري والقفار

جمع المؤلف في هذا الكتيب قطعًا شعرية لبعض الشعراء في العصر الجاهلي، ثم لبعض الشعراء الإسلاميين المتقدمين ولبعض الشعراء الإسلاميين المتأخرين في وصف الصحاري، وقد علق على هذه الأشعار بشروح لطيفة توضح معناها الذي أراده الشاعر، وصدر هذه المجموعة بمقدمة نقل فيها ما قاله المسعودي في مروج الذهب عن السبب الذي جعل العرب يفضلون سكنى البوادي على سكنى المدن والأمصار.

(١١) تاريخ آداب اللغة العربية

هو كتاب ضخم صدره بمقدمات عن الآداب التي يجب أن يروض المشتغل بالآداب العربية نفسه بها، وعن معنى التاريخ وفن تاريخ الآداب والتأليف فيه، وعن معنى الأدب والآداب عند الإفرنج والعرب، ثم انتقل إلى الكلام عن عرب الجزيرة ولغاتهم وطبائعهم وعلمهم، ثم بسط مسائل هذا العلم مبتدئًا بتاريخ الآداب العربية في عصر الجاهلية الأولى، ثم عصر الجاهلية الثانية الذي ينتهي بظهور الإسلام، ثم العصور الإسلامية، وقد أفاض في كل هذه المواضيع، وما يتعلق بها، وأتى على نموذجات من مطالب اللغة، وعلى أبحاث لغوية تتعلق بتاريخ الآداب العربية، ثم ذكر المؤلفين في اللغة، ثم بحث في الألفاظ التي عاشت، ثم ماتت، والمعرَّب، والمولَّد، والأمثال والشعر والشعراء وطبقاتهم، والخطباء، والأنساب، وأسواق العرب إلى آخر ما يحتاج إليه المتأدبون في هذا العلم.

ويلحق بهذا الكتاب جزء عنوانه: «الآداب العربية».

استهله الشيخ بمقدمة في تحديد وظيفة أستاذ الآداب العربية، ثم انتقى مختارات من أبلغ الشعر والنثر في العصور المختلفة مع شرح لغريب ألفاظها، والمعنى الذي أراده قائلها بعد تعريف موجز بهذا القائل إن كان معروفًا.

(١٢) كتاب «فنون البلاغة»

هو كتاب في فنون البلاغة الثلاثة مصدر بآمال شيقة في تاريخ البلاغة، ثم في التعريف بعلومها الثلاثة وتحديد كل من هذه العلوم بإيجاز، ثم تلا ذلك مقدمة في ماهية الفصاحة وماهية البلاغة، ثم ينتقل إلى مباحث علم المعاني، ومن المؤسف أنَّ هذا الكتاب غير كامل.

(١٣) كتيب في التعليم بالمراسلة

هي دروس في رسائل كان يبعث بها المغربي يوم كان في القدس عام ١٩١٥م إلى ولديه مصطفى ونعيمة في طرابلس تضمَّن نصوصًا أدبية وأخلاقية بليغة منتقاة من أمهات كتب الأدب العربي، و«شرحها شرحًا وافيًا، وعلَّق عليها، وفسر ما فيها من غريب الألفاظ تفسيرًا على غاية في الوضوح، وهي خمس وعشرون رسالة متنوعة المواضيع.»

(١٤) النغَب: أو نوادر العلوم وفرائد الآداب

هي مختارات قطع أدبية متفرقة في الأدب والتاريخ واللغة، حوت البليغ من النظم والنثر ويظهر أنَّ الأستاذ كان جمعها وشرحها وحلل ألفاظها، وهو يريد أن يطبعها في كتاب أدبي على نمط الكامل للمبرد.

هذا وقد ترك الأستاذ كراريس كثيرة وتساويد في علوم الدين واللغة والأدب منها «كتاب في أصول الفقه» على طريقة السؤال والجواب و«كتاب في النحو» ورسالة عنوانها «إثبات الحسِّ اللغوي»، كما ترك مقالات وأبحاثًا في مختلف المواضيع معدة للنشر في الصحف والمجلات. وله حواش وهوامش وتعاليق كثيرة على بعض الكتب مثل: المزهر للسيوطي، وحماسة أبي تمام وغيرهما.

أما محاضراته التي تنيف على المائة في الإصلاح الديني والاجتماعي واللغة وآدابها والتاريخ، فقد كان ألقاها في مدن مختلفة في سوريا ولبنان ومصر وأكثرها ألقي في

ردهة المجتمع العلمي بدمشق ومنها ما ألقي على السيدات ومعظمها لم ينشر بعد، وله تأليف خاص بأسرته (آل المغربي) في سورية ومصر وتونس تكلم فيه عن منشئها وعن العلماء الذين ظهروا فيها، كما كتب شيئًا عن نشأته وعن شيوخه وتاريخ والده وأجداده والأعمال العلمية التي مارسها، واستطرد بالمناسبة إلى ذكر وقائع من تاريخ طرابلس وحالتها الاجتماعية في الماضي والحاضر.

هذا هو الإمام المغربي في نواحيه العلمية والأدبية والإصلاحية، وهذه هي صفحة مشرقة من صفحات تاريخها الحديث خطها المغربي في سفر الحضارة العربية الخالدة.

فعليه من الرحمة والرضوان بقدر ما خدم أمته ولغته ودينه.

هوامش

(١) مقدمة الطبعة الثانية ص١.

(٢) راجع تفصيل تلك المناظرات في جريدة المؤيد ١٩٠٨ ومقدمة «الاشتقاق والتعريب» ص٢.

(٣) راجع مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٥ / ٢٧٧.

(٤) عثرات اللسان ص٥.

(٥) انظر «عثرات اللسان» ٨٨-٨٩.

(٦) البينات ٢ / ١٩٥–٢٠٠.

(٧) «الاشتراكية الدستورية» للدكتور عبد الوهاب حومد ١٠–١٣.

(٨) مقدمة تفسير «جزء تبارك» المغربي.

(٩) تفسير جزء تبارك ص١.

(١٠) تفسر الطبري جزء ٢٩ / ص١٣٧ وتفسير النيسابوري بهامشه ص١٢٢.

(١١) على هاشم التفسير ص١٤–١٥.

أول مقال كتبه الشيخ المغربي نقلًا عن جريدة المقطم

في يوم الثلاثاء ٢٧ ذي القعدة ١٣٢٣هـ الموافق ١٩٠٥م وعنوانه:
«التمثيل العربي»

إذا عدت الصحافة والخطابة من عوامل تربية الأمم ووسائل تهذيبها وإرشادها إلى طرق الآداب والفضائل كان التمثيل — ولا ريب — من أقوى تلك العوامل وأقربها تأثيرًا وأنجعها علاجًا.

يعمد التمثيل إلى حادثة مشهورة، أو رواية مأثورة فيعرضها على الأنظار، ويقلد رجالها وكل من له مشاركة في حوادثها متحريًا محاكاتهم في أزيائهم وهيئاتهم وعاداتهم وسائر ملابساتهم. فما التمثيل إذن إلا تقليد ومحاكاة، والتقليد والمحاكاة غريزة من غرائز الإنسان نشأت معه مذ كان على بساط بساطته الأولى. انظر إلى الطفل فإنه لا تمسه نفحة من العقل حتى يأخذ في تقليد من حوله ومحاكاتهم في أقوالهم وأعمالهم، فلا غرو أن كانت النفوس بالتمثيل أعلق وإليه أحن وفيه أرغب.

غاية الحكماء ومربي الأمم والشعوب إصلاح النفوس، وتقويم أود الأخلاق، والاحتيال على سوق الناس إلى سعادتهم وإيصالهم إلى ما يريدونه فيهم من الحياة الاجتماعية بأية وسيلة كانت وعلى أية صورة تسنت. وما تحري البلاغة في الكلام، وتوخي الأساليب الشعرية فيه، وضرب الأمثال، وتدوين الوقائع التاريخية، وتوقيع الألحان، ونحت التماثيل، ونقش الصور، وكل ما يسمونه فنونًا جميلة إلا طرائق سلكها الحكماء إلى

تهذيب شعوبهم، وذرائع للتأثير عليهم والتلاعب بعواطفهم وأميالهم وتوجيهها إلى شطر الخير والفضيلة، وصرفها عن ناحية الشر والرذيلة.

هذه العناية بتربية الشعوب ظهرت على أشدها في أمم أوروبا؛ ولذلك نمت تلك الفنون في ربوعهم، واستوت على سوقها لهذا العهد فيما بينهم.

أما التمثيل فهو جماع تلك الفنون وعقد فرائدها وقيد أوابدها. يتناول الكاتب الحادثة التاريخية فيضربها مثلًا يتجلى فيه جمال الفضيلة بأبهى مظاهرها وقبح الرذيلة بأبشع صورها، ثم يكسو ذلك من جلابيب البلاغة والشعر والتلحين ما شاء وشاء تمكنه من نواحي تلك الفنون ومهارته فيها.

فلا عجب إذا اهتم كبار كتبة الإفرنج بهذا الفن وألفوا فيه التآليف المتعددة في الأساليب المتنوعة، إذ وجدوا فيه ضالتهم المنشودة من قيادة الشعب وسوقه من حيث يشعر، أو لا يشعر إلى تربية ملكاته وتثقيف طباعه.

نشأة هذا الفن في بلادنا والأطوار التي مر عليها منذ أربعين سنة إلى الآن أصبحت معروفة مشهورة. وأشهر منها منزلة الممثل البارع الشيخ سلامة حجازي من ذلك الفن وعنايته به وإبداعه فيه. لا نقول: إنَّ الفن قد بلغ أشده واستوى على عرش كماله، وإنما نقول: إنه بمهارة الموما إليه، واستعداده الطبيعي لهذا الفن وبذل وسعه في تحسينه، وإتقان أساليبه قد كاد يترعرع ويتجاوز طور الطفولية. ولا يخفى أنَّ أركان هذا الفن التي ينهض بنيانه على ثلاثة: مؤلف الرواية أو مترجمها، ثم الممثل، ثم النظارة المتفرجون. ولا شبهة في أننا لم نزل بعد أطفالًا في هذا الفن، والطفل إذا حاول المشي لأول مرة لا بد له من أن — يمسك بيدي أمه، أو يعتمد على نحو كرسي، وإن أبى إلا الاستقلال وترك الاستعانة خاب وفشل، بل أوشك أن يبقى مقعدًا إلى ما شاء الله. وهكذا نحن بالنسبة إلى الفن المذكور، فإن من آنس من نفسه استعدادًا وميلًا فطريًّا إليه ينبغي له أولًا أن يستكثر من قراءة الروايات الإفرنجية، ويستظهر شيئًا من جيدها، ثم يأخذ في ترجمة الحسن المفيد منها، وإذا شعر بالقدرة على احتذاء القوم في وضع الروايات فعل مثلهم، وإلا فإني أنصح له أن يربأ بنفسه عن هذا الموقف ويدرع بالصبر الجميل ولا يستهدف.

ومن أوتي حظًّا من الفهم في هذا الفن أدرك لأول وهلة الفرق بين الروايات المترجمة والأخرى الموضوعة وضعًا. فإن حوادث الأولى تسرد على نسق غريب في أسلوب عجيب، فهي كأنها متكافلة متضامنة، طورًا يفسر السابق اللاحق وآونة يوضح المتأخر المتقدم،

ولا يسمع السامع حادثة منها حتى تنشب أنفاسه في حلقة مبهوتة متشوقًا إلى معرفة ما يليها، فإذا سمعه وقع من نفسه موقع الدهشة والاستغراب. وليس كذلك الروايات الأخرى حتى ما ينسب منها إلى أشهر المشتغلين في الفن، فإنه يضاهي في وضعه وتنسيق حوادثه قصص ألف ليلة وليلة وأشباهها، ولذلك ترى الممثل المتقن يضيف إلى هذا النوع من الروايات ألحانًا لطيفة ومناظر غريبة ليستر عوارها ويكمل النقص الذي فيها.

ومما يغفل عنه أصحاب الروايات العربية إيضاح مغزى الرواية والشأن المفيد الذي وضعت لأجله من حث على فضيلة، أو تنفير عن رذيلة بعبارات جلية وأساليب واضحة مؤثرة بحيث تسترعي أسماع النظارة، وتشعر نفوسهم مغازي الرواية، وإلا كان احتشادهم سدًى وضاع وقتهم عبثًا. ومن شاهد تمثيل رواية ابن الشعب علم أنَّ مترجمها عني بكشف أسرارها وتوخى جهده لإيضاح رموزها وكشف الغاية منها، ذلك لأن المترجم متشبع من الموضوع الذي ترجم فيه مولع بإلفات الناس إليه وحثهم عليه.

أما النظارة المتفرجون فإن أكثرهم لاهٍ عن تعرف الأسرار بهتك الحجب والأستار، مشغول عن تفهم الحكم والفضائل بما فوقه مائل وليس تحته طائل، حقًّا إنه يحسن بنا أن نتشبث بالحشمة والوقار، وندع الطيش وخيانة الأبصار، ونترك كثرة اللغط والضوضاء، سيما عندما يروقنا شيء من أقوال الممثلين وأفعالهم. فإن اللغط يحرمنا فهم تتمة السياق؛ بل ربما شوش على الممثلين أنفسهم، فلا يدرون أيمضون في حديثهم أم يسكتون لبينما يفرغ القوم من جلبتهم وضوضائهم.

رأيت مما ذكرنا أننا لم نزل بعد بين قصور وتقصير عما يلزم كتبتنا وجمهورنا من ترقية شأن هذا الفن وخدمته عملًا وكتابةً. ولا يحسن أن نبخس الشيخ سلامة حقه، فإنَّ من عرف سعيه المتواصل واجتهاده في إتقان الفن وتوفير شئونه واستجماع أدواته ومعداته، لم يملك نفسه عن مدحه والثناء عليه. انتقى أفراد جوقته من أجود الممثلين وأمهرهم وأقدرهم على محاكاة الطبيعة وإحكام تمثيل الأطوار والأخلاق والطباع والانفعالات، بحيث يجيء تمثيلهم للوقائع نسخة مطبقة على الأصل في اللفظ والمعنى.

كنت أشاهد التمثيل فأمسك نفسي عن التأثر وأنبهها دائمًا إلى أنها إنما ترى أثرًا لا عينًا، ومجازًا لا حقيقةً، ولكن مع هذا فإن مهارة الممثلين كانت تغلبني، فيخدع حسي وأذهل عن نفسي حتى تذهب وراء التأثر والانفعال كل مذهب. أذكر من ذلك ما شاهدته بالأمس في رواية هملت من تمثيل الشيخ سلامة وميليا حالة المجانين، وظهور روح والد هملت بشبح خيال نوراني تطير النفس له شعاعًا ويضطرب قلب المرء من مرآه ولو كان شجاعًا.

وقد أخذ الشيخ سلامة لإتقان الصناعة أمتعة وأثاثًا وحليًّا وألبسة وأدوات وآثارًا، وكل ما يحتاج إليه في تمثيل أحوال الأمم الخالية وأزيائهم وعادتهم ما يستدعي الارتياح إليه والإعجاب بصنيعه، ومن حضر تمثيل رواية عائدة ورأى تلك الآثار والملابس والحجب والستائر، التي يحاكي بها ألبسة المصريين وآثارهم عرف مبلغ عناية الرجل بإتقان هذا الفن الجميل وشدة رغبته في كسب رضاء الجمهور وارتياحهم.

ولم يأل جهدًا في تنشيط الكتاب والأدباء وتحريضهم على تأليف الروايات النافعة الملائمة لروح العصر والموافقة لأذواق الناس، بحيث يكون من ورائها انطباع النفوس على حب الأعمال والأخلاق الفاضلة والنفرة من السفاسف والأفعال السافلة.

أما عنايته بحفظ الآداب في «دار تمثيله» وعدم تساهله بما يخل بالحشمة ويلوث اسم الصيانة، فقد جرى في ذلك على مبلغ طاقته، وتوسل إليه بما في وسعه. رأيته مرة يعنف البربري، ويشدد عليه النكير لكونه سمح لرجل أن يكلم زوجته (زوجة المتكلم) التي كانت في لوج من ألواج النساء. بل بلغت به مروءته إلى أكثر من ذلك. لمح مرة وهو على المرسح شابًّا يرمي بلفتاته المتتابعة إلى لوج حريمي في جانبه، فأرسل إليه بكلمة مزج فيها اللوم بالعتاب مزجًا لطيفًا، حتى كاد ذلك الشاب يذوب حياءً وخجلًا. وهكذا أخذ الشيخ سلامة على نفسه أن يجعل فن التمثيل فنًّا جميلًا مفيدًا مسليًا مهذبًا معًا. فنحث الكتَّاب الأفاضل وجمهور الشعب أن يعضدوه، ويشدوا أزره فيما يبتغيه من ذلك والسلام.